# الخطاب الفلسـفي، منطلقاته ومحاوره عند محمد عثمان الخشىت



محمود كيشانه باحث مصري

مؤمنهن بالحدود Mominoun Without Zorders للدراســـات والأبحـــــاث www.mominoun.com



#### الملخص

يُعدُّ المفكر الكبير محمد عثمان الخشت أستاذ فلسفة الدين والفلسفة الحديثة والمعاصرة، أحد القامات الفكرية العربية التي آلت على نفسها الجمع بين النظرة العقلية الغربية والتراث الإسلامي في معالجة القضايا الفكرية، وهي تلك النظرة التي كشفت عن العديد من الأفكار المهجورة في الفكر الإسلامي، وفي علاقة الإسلام بالآخر، والقضايا الفكرية الآنيَّة، ويحسب له أنَّه موسوعي الثقافة مستنير الفكر. له العديد من المؤلفات التي تُدرَّس في عدد من الجامعات، وتعالج العديد من فروع العلم: كأصول الدين والفقه ومقارنة الأديان، وعلم السياسة، والمجتمع المدني، وفلسفة المواطنة، وغيرها من فروع العلم التي تحاول أن تُرسي فهماً جديداً للعديد من الإشكاليات المعاصرة، مستندة في ذلك إلى منهج وسطي عقلاني، يصطبغ بصبغة منطقية، وتعمُّق في العلوم الإنسانية والعلوم الشرعية. له ما يربو على الخمسين كتاباً، من أهمها: العقلانية والتعصب، الحد الأدنى المشترك، العقائد الكبرى، فلسفة المواطنة في عصر التنوير، المجتمع المدني، المعقول واللامعقول في الأديان.

وقد حاولنا أن نكشف في هذه الدراسة عن الخطاب الفلسفي عند الخشت من خلال دراسة المنطلقات التي ينطلق منها فكره، فضلاً عن المحاور الفكرية الفلسفية التي يقوم عليها، وقد ارتكزت الدراسة فيما يتعلق بمنطلقات الخطاب الفلسفي على أسس: العقل والمنهجية والمقارنة كسبيل من سبل تأصيل الأفكار، والتأسيس الموضوعي، وغلبة الروح النقدية، وهي الأسس التي انطلق منها الخشت في خطابه الفلسفي، في حين ارتكزت الدراسة فيما يتعلق بمحاور الخطاب الفلسفي على محاور من نحو: بناء فلسفة عقلانية، بناء نسق وسطي معتدل، نقد الفلسفة الغربية، التوظيف العقلي للدين، المساهمة في بناء علمي منهجي، بناء الدولة الحديثة، كشف الاتجاهات الخارجة عقدياً وعقلياً، الدعوة لأخلاق كونيّة.



## منطلقات الخطاب الفلسفي عند الخشت

إنّ الخشت يدرك جيداً أنّ العلم يُشكّل دوماً المنعطفات الكبرى لتحوّل البشرية من مرحلة إلى مرحلة أعلى، ويؤمن بأنّه الذي ميز دولاً عن دول في عالمنا المعاصر، ولذا فإنّ جهوده كلها - ولا أبالغ في ذلك - كانت موجّهة نحو تنمية البحث العلمي؛ لأنّه الطريق الوحيدة إذا أردنا لأمّتنا مكانة بين الأمم المتقدمة. وكان مؤمناً كذلك بأنّه ما تزال أمامنا تحديات كبيرة، تحديات التطوير، وتحديات إعادة الإصلاح، وتحديات التأهيل النظري الواضح والأسس المنهجية الرصينة التي بدونها يهبط المستوى العام للبحث العلمي. (1) ولذا لم يجد الخشت بدًا من الارتقاء بمستوى البحث، وذلك من خلال محاولة رفع مهارات البحث عند الباحثين، وتأكيد تواصل الأبحاث مع تراكم المنظومة المعرفية العالمية من جهة، وتمثل الأسس المنطقية والقواعد الموضوعية التي يجب أن يستند إليها الباحث في در استه للظاهرة من جهة أخرى، والاهتمام المستمر بقضايا المنهج التي تشكل إطاراً مرجعياً بالاعتماد على خبرات نقدية معبَّرة عن الواقع. «ولا يمكن تحقيق ذلك كاملاً من دون مساهمة عملية ومباشرة في مجال مناهج وأدوات البحث العلمي وفي مجال التنظير، فضلاً عن تدقيق قواعد الكتابة العلمية. ممَّا يؤدي في النهاية إلى خلق جيل من الباحثين يتمتع بمنهجية صارمة، ورؤية علمية متميزة» (2).

وإيماناً بأهميَّة تأصيل الأسس المنهجية قدَّم الخشت كتاب مناهج البحث الذي سعى من خلاله إلى تقديم منهجية رصينة وخطوات عملية وعلمية تمثل استراتيجية منظمة يستطيع الباحث من خلالها اكتشاف الحقائق، «فالوصول إلى الحقيقة غير ممكن بدون استخدام قواعد وطرق البحث العلمي السليم وفقاً للمنهجية العلمية، وبدون الاعتماد على الركائز الأساسية التي تساعد الباحثين على إنجاز الأبحاث وفق إجراءات تحليلية تكشف المعرفة اليقينية المفسرة للظاهرة محل البحث، والتعبير عنها بأسلوب رصين يلتزم بأدبيات الصباغة والتعبير »(3).

إنَّ الدكتور الخشت يسير وفق منطلقات منهجية محددة، تُعتبر نموذجاً للمنهجية، ويمكن أن نحصر هذه المنطلقات في الآتي:

#### أولاً: العقل

يهتم الدكتور الخشت في مؤلفاته و منهجيته بالعقل كمعول عليه أساسي في فهم و تفسير القضايا و الإشكاليات المختلفة، وليست كتبه في نقد الفلسفة الغربية وكتبه في مجال الفلسفة و الفقه إلا دليلاً حياً على ذلك.

<sup>1</sup> الخشت، مناهج البحث، بيروت، ط الأمير، 2010م المقدمة، ص 1

<sup>2</sup> الخشت، مناهج البحث، المقدمة، ص 1

<sup>3</sup> الخشت، مناهج البحث، المقدمة، ص 1



ومن لوازم العقل العقلانية، وهي عند الخشت صفة تنطبق على استخدام العقل، العقل الذي يميز الله تعالى به الإنسان عن الحيوان. ويأسف الخشت من أن كثيراً من الناس لا يستخدمون عقولهم، بل وكثير من الناس الذين يستخدمون عقولهم يستخدمونها بشكل خاطئ، لأنهم لا يعرفون طريقة التفكير الصحيحة؛ أو لأنهم يغلّبون أهواءهم ورغباتهم ومصالحهم السريعة على أحكام العقل. (4)

ومن ثم فقد أثمرت عقلية الخشت كتاب ـ العقلانية والتعصب ـ هدف من خلاله شرح وتحليل مفهوم العقلانية، وبيان مبادئها وأصولها، وأهم أعلامها، مع بيان جوانب الاتفاق والاختلاف بين أنواع العقلانية، والتمييز أيضاً بين العقلانيين واللاعقلانيين المتعصبين، والتمييز بين العقلانية المعتدلة والعقلانية المتطرفة.

ويقف هذا الكتاب عند مفهوم التعصب سواء كان تعصباً أو تطرفاً دينياً أو غير ديني. «وفي ظني يكمن المنشأ الفلسفي للتعصب والتطرف في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتعصب المتطرف عقل مغلق على نفسه، ومن ثم فهو مظلم، مثل الحجرة المغلقة التي لا نوافذ لها ...، إنّها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئاً سواء في الداخل أو الخارج...، إنّه لا يستطيع أن يتجاوز ذاته. ومن هنا فإنّ صاحب العقل المغلق من المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، لا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي! ويرجع هذا بدوره إلى حالة الانغلاق العقلي التي يعيشها، ومن ثم الطابع التعصبي التطرفي الذي يميز منهجية التفكير التي يستخدمها. فأيّ متطرف في الدين أو الفكر أو السياسة هو متعصب أو دوجماطيقي بلغة الفلسفة» (5).

ويظل الخشت مؤمناً بقيمة العقل، وقدرته على مواجهة إشكاليات الواقع رغم صعوبتها، فقد حمل الخشت مشروعه الفكري على أسس عقلية، أراد نهضة فكرية علمية على أسس عقلية، أراد اتجاهاً فقهياً تنويرياً على أسس عقلية. والحق فإنَّ بروز العنصر العقلي لديه، والموقف العقلاني في كلّ ما يصدر عن فكره أمر واضح لا تشوبه شائبة، ويبرز جلياً في كتاباته.

فالعقل عند الدكتور الخشت الأساس الذي يستند إليه في حلّ القضايا، فهو في علم مقارنة الأديان يتخذه معيناً في رفض آراء الأديان المخالفة للتوحيد وإثبات وجود الله، ويتخذه معيناً في إثبات الوحدانية لله سبحانه؛ لأنّه وجد في إثبات غير ها تشبيهاً لله بالإنسان. وما أظنُّ في من ينقد مذهب كانط العقلي إلا واقفاً على منهج عقلي راسخ مستخدماً إياه، وما أظنُّ إيمانه بقيمة العقل عند الأفغاني وإعلائه على التقليد إلا إيماناً بهذا المنهج واستخدامه، وما أظنُّ تفضيله للمنهج أو للمنطق الحديث على سابقه إلا إيذاناً بوجود منهج عقلي يدعوه إلى هذا التفضيل من خلال ما بدا له من مميزاته وأهميته ودوره في الصعود بالإنسانية إلى الرقي والتقدم. إنَّ

<sup>4</sup> الخشت، العقلانية والتعصب، القاهرة، دار نهضة مصر، 2000م، ص المقدمة.

<sup>5</sup> الخشت، العقلانية والتعصب، ص المقدمة.



الدكتور الخشت قد أعلن عن منهجه العقلي بوضوح أيضاً من خلال إبراز الجانب المشرق في الفلسفة العقلية البناءة.

إنَّ الخشت يمتلك عقلاً حرًا ينتقد العقل المغلق، فالعقل المغلق عنده مثل الحجرة المظلمة التي لا نوافذ لها، إنَّها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئاً سواء في الداخل أو الخارج، ولا يتنفس إلا هواء قديماً، أمَّا أكسجين الحياة فلا يمكن أن يصل إليه، ومن ثمَّ كان ينظر إلى صاحب العقل المغلق على أنّه أشبه بالطفل في رحم الأم، كلُّ عالمه هو هذا الرحم، وهو غير متصل مع العالم الخارجي، ولا يمكن لأحد أن يحاوره، ولا يمكن أن يخرج من هذا العالم المغلق بإرادته، إنَّه يظن أنَّ الخروج من هذا العالم مهلكة، وهو يصرخ بأعلى صوته ويتلوى ويرفس عند إخراجه قسراً، ولذا لا يستطيع صاحب العقل المغلق عنده أن يتجاوز ذاته أو عالمه الخاص. ومن المستحيل أن يرى أيَّ شيء خارج عقله، ولا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، بل يصل به الحد إلى اعتبارها ذات طابع إلهي، وأنَّ الله تعالى معه، بل إنَّه ممثل الله على الأرض. والله ليس ربّ العالمين، بل ربّه هو فقط. وعندما يدخل في صراع مع أحد، فالبديل الوحيد عنده هو إعلان الحرب المقدِّسة؛ فهو وحده على طريق الحق والخير، وغيره كافر، أو عَلماني، أو ضال، أو شرير أو فاسد. (6)

ومن غير الخفي أنَّ الخشت لم يكن ينظر إلى العقل المغلق على أنَّه فقط طابع يميز بعض التيارات الدينية الأصولية، بل هو طابع بعض الحركات الشيوعية والعلمانية أيضاً التي تعتقد أنَّها تملك الحقيقة المطلقة، وكذلك يظهر العقل المغلق كسمة أيضاً وبوضوح في بعض المواقف الغربية التي تتخذ موقفاً معادياً من الحضارات الأخرى وتزعم أنَّ نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق، ولذا فهي تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات، الذي تنظر فيه إلى حضارتها كممثلة للمدنية أمَّا الحضارات الأخرى فهي بدائية. (7)

وبناء على هذا الفكر المتحرِّر من قيود الإيديولوجية لم ينظر الخشت إلى العالم على أنَّه أبيض وأسود، ملائكة وشياطين، سلام وحرب، فلم يكن بحال منفصلاً عن الواقع أو أسير أوهام وأفكار يعتبرها مقدَّسة، وهذا كله يعبِّر عن حالة الانفتاح العقلى التي كان يعيشها الخشت.

لقد كان العقل عند الخشت معيناً له في اتجاهاته السياسية؛ فقد كان يرى أنَّ المجتمع في الإسلام قائم على التعدُّدية وحماية الجماعات الضعيفة والأقليات، ومحاربة التمييز ضدَّ حقها في الحريَّة. ومن ثمَّ كان يطالب

http://www.elwatannews.com/news/details/238321

7 الخشت، العقل المغلق، بوابة الوطن، 3/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/238321

5

<sup>6</sup> الخشت، بروفايل العقل المغلق، بوابة الوطن، 3/8/2013م.



باستعادة هذه المفاهيم المدنية وتقنينها في الدستور والقانون وتوسيع نطاق دورها وتدريب الناس عليها حتى يتحولوا إلى كائنات حرَّة مسؤولة دون قهر أو إقصاء وأيضاً دون فوضى أو عشوائية... «إنَّها معادلة صعبة في مجتمع مراهق سياسياً، لكن لا بدَّ من أن نصنعها إذا أردنا دولة حرَّة يحكمها دستور عادل يحفظ الأمن والنظام العام والدولة الوطنية، لكنَّه لا يفرِّط في الحريَّة. فهل يمكن أن نفعلها؟ والذي أريد أن أستنبطه من هذا كله لا يخصُّ المتشددين من الإسلامويين فقط الذين يحتكرون الحقيقة، بل يخصُّ المتطرفين من العلمانيين الذين لا يقلوُّن في ادعاء احتكار الحقيقة عن الإسلامويين، فعلى الرغم من اختلاف المقاصد بين الاثنين إلا أنَّ «ماكينة التفكير» واحدة، وتنتج طحيناً من النوع نفسه، الفرق فقط في اللون لا في الطعم، إنَّها مأساة العقل السياسي المصري المحكوم ببنية واحدة رغم اختلاف الثوب الخارجي». (8)

### ثانياً: المنهجية

كان الخشت منهجياً إلى أقصى درجات المنهجية، فلا تكلف ولا زيادة، وإنّما الوصول إلى الحلول أو الرأي المناسب من أسهل الطرق وأيسرها، إذ لم يكن في منهجه التنطع أو التعالي أو تزيين كلامه أو مؤلفاته بالصور البلاغية، والأساليب البراقة، أو المحسنات البديعية. ويمكن التسليم للدكتور الخشت بالمنهجية من خلال عدة أمور، على الرغم من كثرة الأمور الدالة على ذلك:

أ - منهجه يقوم على طرح المقدمات واستنباط النتائج منها دون زيادة.

ب - تناسق الأفكار التي يروج لها في مؤلفاته المختلفة.

ج ـ جودة تقسيم الكتب التي يؤلفها ودقة عرضها.

د ـ التوازن الكمي بين الفصول.

ه - البعد عن الحشو والاستطراد.

الأول: طرح المقدمات واستنباط النتائج منها دون زيادة:

يظهر طرحه للمقدمات لاستنباط النتائج أمراً مقرّراً في كل كتاباته ومؤلفاته، ففي مؤلفاته حول الفلسفة الحديثة يضع النصوص الكانطية أو الهيجلية المأخوذة من كتب كلِّ منهما الخاصة كمقدمات يستنبط منها النتائج التي تنحصر في أنَّ كلاً منهما حريص على فكرة الدين كدين دون تحديد هذا الدين؛ حيث إنَّ فكرة

http://www.elwatannews.com/news/details/356744

<sup>8</sup> الخشت، الإسلام الحر ودستور بلا أقنعة، بوابة الوطن، 16/11/2013م.



الدين شغلت كل المفكرين على حد سواء، ومن خلال هذه المقدمات دلل على خطأ ما سبق أن قرّره بعض الباحثين.

كذلك تظهر تلك الجزئية المنهجية في مقارنات الدكتور الخشت بين كانط وهيجل في كتاب: المعقول واللامعقول في الأديان - من العقلانية النقدية إلى العقلانية المنحازة، ومقارنته بين الأفغاني ورينان في كتاب: الإسلام والعلم بين الأفغاني ورينان، فالنصوص والمقدمات والنتائج، ولا زيادة على ذلك، فالذي يحكمه ويوجه سيره هو النصوص التي لا تقبل الشك، بحيث تكون هذه النصوص هي الفيصل والحكم بينه وبين خصومه.

الثاني: تناسق الأفكار التي يروج لها في مؤلفاته المختلفة:

فالدكتور الخشت كان يحرص على ألا يقع في تناقض مع ذاته في معالجته لمسائل الفكر الفلسفي، وإنّما كان يحرص على التوافق مع النفس والتوافق مع المنهج الذي يسير عليه، وكأنّه يعنى ـ كما قلت سابقاً بمشروع فكري يبدو التناسق واضحاً بين جميع أجزائه، وممّا يدلل على ذلك أنّ رؤيته في التنوير والتقدم تتواءم مع عقليته الفكرية والمنهجية، وتتواءم أيضاً مع منطقيته، ومقارناته التأصيلية للأفكار.

وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً نقول إنَّ التقدم عند الدكتور الخشت لمَّا كان يقوم على الدين والعقل فقد تبنى العقلية الإصلاحية، ولمَّا كان الإصلاح يستلزم توعية الشعوب المسلمة بتأثيرها في الشعوب الأخرى وأنَّها شعوب إيجابية وليست سلبية فقد قام بدر اسات تنويرية في الفقه والسياسة والفلسفة تؤكد على أنَّ المسلمين أصحاب فكر، ممَّا يبعث الأمل والهمَّة في نفوسهم، ولمَّا هيأ العقلية المسلمة لهذا كان عليه أن يرسم الطريق الواضحة التي تسير عليها، فكانت در اساته عن المجتمع المدني، والمجتمع المدني والدولة، وكانت در استه المنطقية التي توعي المسلمين بسبل المنهج العلمي الحديث.

الثالث: جودة تقسيم الكتب التي يؤلفها ودقة عرضها:

والحق أنَّ كتب الدكتور الخشت تظهر فيها جودة بالغة في التقسيم ـ تقسيم الموضوعات محل الدراسة ـ ويكفي أن نلقي نظرة على أيّ مؤلف من هذه المؤلفات لندرك إلى أيّ مدى بلغت هذه النقطة عنده مبلغاً كبيراً.

الرابع: التوازن الكمي بين الفصول:

يظهر في عدد صفحات كلّ فصل في كلّ كتاب من كتبه، والنسب المتساوية بينها، فلا نجد مثلاً فصلاً ما ثلاثين صفحة و آخر مائة صفحة، وإنّما نجد بجوار الفصل المكون من ثلاثين صفحة، فصول الكتاب تتراوح بين هذا العدد بالزيادة أو النقصان قليلاً.



#### الخامس: البعد عن الحشو الاستطراد:

يظهر في أنَّ الخشت لا يزايد في الكلام، ولا يدخل في الموضوع ما ليس منه، وإنما يقتصر على النصوص التي تؤيد الفكرة ويعالجها بما شاء من الطرق المنهجية التي تكفل له استقراء النص استقراء منطقيًا.

#### ثالثاً: المقارنة كسبيل من سبل تأصيل الأفكار

من سمات منهج الدكتور الخشت الرئيسية المقارنة، وهي المقارنة التي تهدف إلى الإعلاء من قيمة الفكر الإسلامي في جوانب كثيرة ومشاركته للفكر الغربي الأوروبي، كما تهدف إلى الرد المقنع من خلال النصوص التقابلية على خطأ بعض الآراء التي ذهب إليها بعض الفلاسفة حول الفلسفة الإسلامية أو الفلسفة الحديثة والمعاصرة أو فلسفة مقارنة الأديان، كما كانت في الغالب تهدف إلى إظهار قراءة جديدة عن القراءة التي ساقتها أقلام الباحثين قبله.

وتشمل مقارنات الدكتور الخشت الكتابات الآتية: «الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني»، و «المعقول واللامعقول في الديان - من العقلانية النقدية إلى العقلانية المنحازة»، و «تطور الأديان» و «مقارنة الأديان»، و «الحد الأدنى المشترك بين الأديان والفلسفة»، بل إننا نجد المقارنة متو غلة في كل كتابات الدكتور الخشت التي ليس هدفها الأول الموازنة بين فكرين أو شخصين؛ حيث نجده يميل إلى المقارنة خاصة إذا كان الأمر بصدد مناقشة رأي من الآراء أو الدفاع عن رأي يدين به، ويظهر هذا الأمر بوضوح مثلاً عندما يناقش أياً من والزر أو كونج أو غير هما، و عندما يناقش أصول المجتمع المدني في كتاب «المجتمع المدني» وكتاب «المجتمع المدني والدولة».

#### سمات المقارنات التأصيلية:

إذا نحن تأملنا موقف الدكتور الخشت في علاقة التأثير والتأثر بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي الغربي فلنا أن نزعم أنّه كان مقارناً ماهراً، وفلسفياً حاذقاً، وأصدق شاهد على هذا - كما سيتبين - أنّه كشف عن اتجاه تأصيلي صرف في كيفية إثبات علاقة التأثير والتأثر بين فكرين أو منهجين أو شخصين، فقد حدَّد منهجاً موضوعياً في إثبات ذلك، وهو المنهج الذي من خلاله كشف عن الكثير من الحقائق والوقائع، لقد وضع أصولاً جديدة في طريقة المقارنة التأصيلية، واستوفى جميع نواحي المسألة في دقة وبراعة فائقة تدل على الإلمام بأبعاد المسألتين اللتين تقعان تحت حيز هذه المقارنة، فوقف على ما سوف نجده من آراء وأفكار ونظريات تكشف عن مدى التأثير والتأثر في قطاع عريض من الفلسفة الغربية، على نحو يقضي كليّة - في رأيي - على الفرية القائلة إنَّ المسلمين ليسوا إلا مجرد شرّاح لفلسفة أرسطو.



إنَّه أرسى مبدأ جديداً وقاعدة مبتكرة في كيفية إجراء المقارنات بين الأفكار أو الأشخاص على نحو قلَّ أن يداينه مفكر آخر في ذلك، بحيث يمكن القول إنَّه قضى على الطابع الإيديولوجي أو المذهبي أو العرقي الذي قد يكتنف بعض الباحثين في مقارنتهم، كما قضى على ما يمكن أن نسميه الطابع السطحي في المقارنات. فكانت در استه أشبه بالدر اسة الميدانية التي تتبع جوانب وتفاصيل الفكرة التي يذهب إليها.

وأول ما يفاجئنا في هذا المبدأ أنَّه مبدأ متحرر من الطريقة التقليدية، وأقصد بها الطريقة التي تقوم على الثقة بالأفكار لمجرد أنَّ المتقدمين أقروها، فهي طريقة يمكن أن نسميها طريقة سلبية ليس فيها شيء من الابتكار أو الجدة، وإنَّما هي مثال على الدعة والكسل. وقد يدلك على هذا المسلك أنَّه لم يكتف في إثبات التأثير والتأثر بإظهار مواطن التشابه والاختلاف فقط، وإنَّما كان يجاهد لقراءة النصوص قراءة تأويلية لا تكتفي بمجرد الطرح، وإنَّما تحاول أن تسبر أغوار النصوص والآراء.

ويمكن القول دون تردد إنَّ مقارنات الدكتور الخشت أو تأصيلاته تمتاز بعدة مميزات، جعلت منها تأصيلات تفوق غيرها في جوانبها الفلسفية والمنهجية ممَّا عرض له المفكرون في الدراسات المعاصرة، ويمكن حصر هذه المميزات في الآتي:

الأول: تعتبر تلك المقارنات مركزة ذات موضوعات محددة، فالرجل كان يضع موضوعاً محدداً أو فكرة محدودة لتناولها بين شخصين، ولعل المتأمل لدراسته عن العقل وما بعد الطبيعة ـ تأويل جديد لفلسفتي كانط و هيوم، يجدها خير دليل على تركيز الخشت في حيز ملائم منسق متسق، فدرسها من جانبين: جانب النقد الداخلي المتعلق بدارسة النصوص وتحديد المشكلات وطريقة الحل والمنهجية في المعالجة، وجانب المقارنة النقدية التحليلية.

الثاني: تعتبر محاولات التأصيل عند الدكتور الخشت تفصيلية، فرغم أنّها مركزة ومحددة إلا أنّها تفصيلية في داخل هذا الإطار المحدد، وقد كان لهذا التفصيل - في رأيي - غرضان: الأول، إظهار الأبعاد المختلفة للموضوع مجال المناقشة والتأصيل عند كل من المفكرين موضوع المناقشة، والثاني، التأكيد على مدى الاتفاق الشديد بين هذين المفكرين، ومن ثمّ إثبات الأسبقية والأصالة في الفكر الفلسفي. وتُعد مسألة العلم والدين بين رينان والأفغاني من أكثر المسائل تدليلاً على هذه الميزة. فالدكتور الخشت حدد الدراسة بين هذين المفكرين، وعالجها في إطار من التفصيل، فعالج الأمور الجزئية - عندهما - التي تندرج تحت هذه الجوانب الكبرى في دراسته.

الثالث: هي مقارنة تأصيلية، حيث تعتبر محاولات التأصيل عند الدكتور الخشت تقوم - في المقام الأول - على المقارنة، وهي أقرب الطرق للكشف عن مدى العلاقة الموجودة بين مفكرين في موضوع ما من موضوعات الفكر. ولنا أن نقول إنَّها أقرب الوسائل التي تتيح معرفة مدى إسهام فكر ما في نشأة أو تطور



فكر آخر، كما أنّها تضع صورة واقعية أمام القارئين أو المتخصصين لإدراك عملية التأثير. ونحن نعلم أنّ الدكتور الخشت، وهو في سبيل تأصيل الفكر الإسلامي عن طريق المقارنة، قد صنع لنا مقارنات أقل ما توصف به أنّها رائعة وهي:

- المعقول واللامعقول.
  - مقارنة الأديان.
  - العقائد الكبري
- العقل وما بعد الطبيعة.
- العلم والدين بين الأفغاني ورينان.

وكلها مقارنات تقوم على مقابلة النصوص بعضها ببعض، بحيث لا تدع أيَّ مجال للشك في طبيعة الصلة الوثيقة التي تربط بين طرفي المقارنة.

الرابع: تقوم محاولات التأصيل هنا على الدراسة التحليلية، إذ لم يكن الدكتور الخشت يقتصر على الدراسة المقارنة، وإنّما أردفها بالدراسة التحليلية لهذه النصوص للكشف عمّا بها من أفكار وآراء، فهو يقوم بتحليل النصوص تحليلاً دقيقاً، للكشف عن أوجه التلاقي أو التشابه أو المحاكاة، وقد كان لهذه الطريقة عند الدكتور الخشت دورها المحمود؛ لأنّه كثيراً ما يتفق أن يتحدث الطرفان عن فكرة واحدة مع قليل أو كثير من التحوير، بحيث قد ينطبع في الذهن للوهلة الأولى عدم وجود تقارب ما بينهما، وهنا تأتي أهمية تحليل النص كلمة كلمة وجملة جملة، حتى يتم الكشف عن وجود هذا التقارب، وقد عبَّر منهج الدكتور الخشت عن هذه الميزة خير تعبير في مقارنته كلها بدون استثناء.

الخامس: تقوم محاولات المقارنة إلى جانب هذا على الدراسة الوصفية، بمعنى أنَّها غالباً ما تلجأ إلى وصف نشأة الفكرة موضوع البحث وتطورها عند الطرفين، وعلاقتها بالبيئة التي ظهرت فيها، وهذا الأمر يتضح تمام الوضوح في المقارنة الرائعة حول كانط وهيوم، أو كانط وهيجل.

السادس: تقوم هذه المحاولات على الدراسة الموضوعية التي تحاول تهميش دور التاريخ فيها، استناداً إلى أنَّ كثرة التفاصيل التاريخية، وما يحيط بها من قصص وأساطير تخرج الباحث عن الموضوع الأساسي وإن كان هذا لا يعني إهمال المنهج التاريخي - في حين كان هدف الدكتور الخشت الكشف عن الاتجاهات الأساسية والمميزات الذاتية للفكر الفلسفي، ومن ثمَّ وجدنا مقارنات الدكتور الخشت تحاول بصدق الكشف عن هذا الهدف الأخير. كما وجدنا الدكتور الخشت يتجه إلى موضوعات محددة ومركزة تكون أساساً



ينطلق منه إلى إرساء نوع جديد من الدراسات الموجهة للعناية بالأفكار الجديدة دون الارتكاز على الناحية التاريخية. ولعل تلك السمة تظهر بوضوح في بحوث الدكتور الخشت حول دراساته القائمة على المقارنة، وغيرها من الدراسات. ويمكن القول إنَّ هذا المنهج قد اهتدى الدكتور الخشت من خلاله إلى أفكار جديدة تدعو إلى وجهات نظر مخالفة لتلك التي ارتضاها باحثون سابقون. لقد كان يبدأ دراساته التأصيلية بعملية تحليلية دقيقة لأفكار طرفي المقارنة أو التأصيل، ثم يتجه إلى النظرة التركيبية التي تقوم على اختيار الآراء المتشابهة بينهما، فهو يطبق أسس المنهج العلمي أو المنطق الحديث في محاولته للوصول إلى وجه الحق.

السابع: تنوعت هذه المحاولات بين إظهار نقاط الالتقاء مع البحث الفعلي عن مظاهر التأثير والتأثر، وبين إظهار نقاط الالتقاء دون البحث الفعلي عن إثبات ظاهرة التأثير والتأثر، وبيدو مقارناته من النوع الأول متمثلة في: كتاب العلم والدين بين الأفغاني ورينان، وهي الدراسات التي حاول الدكتور الخشت من خلالها أن يدلل على أسبقية العقلية العربية للفكر الغربي في مسائل مهمة وحساسة لم تأخذ شكلها النهائي إلا في العصر الحاضر، كل ذلك دون أن يكون هدفه إثبات جهل الغرب بأفكار جوهرية في الإسلام، أو معرفتهم بها، مع أنَّ هذا قد يكون صحيحاً. أمَّا مقارنات النوع الثاني فهي متمثلة في: المعقول واللامعقول، وغيره من الكتب المتعددة، ورغم أنَّه لم يصرّح في هذه الدراسة الأخيرة بأنَّه لم يقصد إثبات التأثير والتأثر، وذلك لعدة أسباب أهمها: تلك الدراسة التفصيلية لكل جزء من أجزاء الأفكار المتشابهة بينهما على نحو يؤكد أنَّ الأمر ليس بعيداً عن إثبات ظاهرة التأثير والتأثير والتأثير، ومع هذا يبقى التأكيد على أنَّ مظاهر التأثير والتأثر كانت المنطلق الذي انطلق منه إلى التأويلات الجديدة وفهمه المبتكر لكثير من القضايا والعلاقات الشائكة بين الفلاسفة.

الثامن: هذه المحاولات برهانية تعتمد على عرض النصوص التي تؤكد التشابه بين الآراء عند جانبي المقارنة، فالمعول الأساسي في أي دراسة برهانية هو الاستناد إلى النصوص التي تؤكد وجود الفكرة عند هذا وذاك.

التاسع: تُعدُّ هذه المحاولات دعوة إلى الانتصار للفكر الإسلامي، ورداً مفحماً لتلك الافتراءات التي قال بها رينان ومن سلك سبيله من المستشرقين المتعصبين ممَّن ذهبوا إلى أنَّ الفكر الإسلامي لا يميل إلى الكليَّات، وأنَّ المسلمين ليسوا إلا مجرد شراح لأرسطو وفلسفته، فنجد في مقارنات الدكتور الخشت دليلاً على رفض تلك الفرية من خلال واقع عملي يثبت بما لا يدع مجالاً لشك كيف كان هذا الفكر المفترى عليه له دوره وتأثيره الواضح في الفكر الغربي على مرّ العصور، مهما حاول المتعصبون وضع حجب وأستار حديدية حول هذه الفكرة التي تثبتها الأيام يوماً بعد يوم، وتثبتها أقوال المفكرين الغربيين أنفسهم.

العاشر: وثمة فائدة أخرى في المقارنة ومحاولات التأصيل بين المذاهب الفلسفية الأوروبية؛ إذ لم تكن غاية الأستاذ الخشت من هذه المقارنة البرهنة على أنَّ عناصر الفكر الإسلامي أو اتجاهاته الرئيسة قد نقلت



إلى مذاهب فلاسفة الغرب، إذ لم تكن تستهويه تلك الدراسات، وإنّما كان هدفه ينحصر في أن يظهر الآراء الفلسفية المبتكرة التي أحيطت بصمت بالغ، أو التي ينظر إليها بعض الدارسين على أنّها لا تستأهل الوقوف عندها للتأمل أو لمجرد الدراسة.

الحادي عشر: إهمال الجانب التاريخي في هذه المحاولات، فلم يكن يشغل الدكتور الخشت باله بالبحث عن المسالك التي يمكن أن يكون الفكر قد تبعها حتى انتهى بتفاصيله المذهلة إلى الفلسفة الغربية عبر القرون المتباعدة، رغم تباين الوسط البيئي والفكري الذي عاش فيه كلٌّ من طرفي المقارنة، مع هذا يبقى أنَّ الخشت قد تطرق إلى بحث الجوانب التاريخية الكبرى التي مرَّ بها الفكر أو المفكر الذي يتناوله بالدراسة، كما فعل مع كانط و هيوم وكانط و هيجل. وإذا كان الخشت يلجأ إلى إهمال الجانب التاريخي، فإنَّ السبب في ذلك يعود إلى الآتى:

أ - نظرة الدكتور الخشت نفسه إلى هذا الجانب على أنَّه دراسة من الخارج، وإن كان لها أهميتها البالغة في التدليل على الجانب النقدي الداخلي.

ب - كان وقته لا يتسع لاستخدام هذا الجانب في الكشف عن حقيقة التواصل بين طرفي المقارنة.

ج - كان يرى أنَّ منهج النقد الداخلي الذي يقوم في الأساس على دراسة النصوص ذاتها هو المنهج الأمثل والمتكامل في إثبات الهدف من المقارنة.

د - إفساح المجال للباحثين لمعالجة هذه المسائل تاريخياً، خاصة أولئك النفر الذين يستهويهم هذا النوع من الدراسات. وقد فعل ذلك عندما طرح أكثر من قضية تصلح للدراسة والبحث، منها: فلسفة الدين عند هيجل، وفلسفة الدين عند ليبنتز.

الثاني عشر: ومن الأمور المهمّة في هذه المحاولات التأصيلية أنَّ الخشت لم يشأ أن يضخم هذه المحاولات بذكر آراء الآخرين الذين كتبوا عن أحد طرفي المقارنة أو كليهما، وإنَّما كان يذكر منها الآراء التي تخدم موضوعه وفكرته التي حددها لنفسه بدءاً؛ فإنَّ اعتماده الكلي كان على كتابات ومؤلفات هذين الطرفين، ومع ذلك فلا أظن أنَّ الخشت يرى في نفسه أنَّه أبرز جميع نقاط الالتقاء أو الاختلاف بينهما، وإن كان بالأحرى يراها نقطة على طريق إثبات مرحلة التأثير والتأثر أو حتى التشابه والتوافق.

الثالث عشر: الإشارة أثناء المقارنة إلى أوجه الاختلاف بين طرفي المقارنة إن وجد ما يدل على هذا الاختلاف؛ فقد كان يدرك أنَّ السعي الحثيث إلى بيان تأثر أحد الطرفين بالطرف الآخر في كلّ الأمور أمر في غير صالح البحث أو الهدف الذي يرمي إليه؛ ولأنَّه كان يدرك أنَّ ذلك أمر في غاية الصعوبة، حتى أنَّ طبيعة الإنسان الشخصية تهفو إلى التفرد عن الغير. وإثبات الذات والخصوصية، فقد أكد على بعض



الاختلافات الجوهرية عند كانط وهيجل في نظرتهما لفلسفة الدين، في سياق مقارنته بين الأديان على التفرد لكل ديانه مميزاً بينهما، وهكذا في بقية المقارنات. وهذا يدل على مقدار ما كان يكتنف دراسات الدكتور الخشت المقارنة أو التأصيلية من أمانة وحيدة تبلغ مدى بعيداً.

الرابع عشر: فتح الباب أمام الباحثين لدراسة تلك الموضوعات المتعلقة بمقارناته دراسة تفصيلية أحد المبادئ التي راعاها الخشت في تأصيلاته، وخير مثال على ذلك أنَّه آثر توضيح فكرته الخاصة التي يرمي إليها من بعض المقارنات في سبيل الاتفاق والاختلاف بين طرفي المقارنة تاركاً لغيره مهمة قراءة أخرى بأسس مقارنة أخرى إن شاء بين كل جزئية من الجزئيات التي عرضها، وحتى تكون فكرته الخاصة هنا وحدة قائمة بذاتها، ونستطيع القول إنَّ مقارناته تصلح أن يخرج من تحت عباءتها عشرات الدراسات والأبحاث التي تعالج موضوع الدراسات عند من ذكرهما هو في دراساته، ممًّا يُعدُّ معيناً خصباً يوجّه الباحثين إلى أهمية دور المنهج المقارن في الكشف عن أسس بناء صرح الحضارة الغربية.

الخامس عشر: كانت مقارنات الخشت تحاول كشف العلاقات بين طرفي المقارنة في كل مرحلة من مراحل التطور الذي انتاب هذين الطرفين، فلم يكن يقنع بالوقوف عند علاقتي التشابه والاختلاف، في حين لم يكن يقنع بالتوقف عند هاتين العلاقتين، وإنّما كان يعمل على توسيع مجال الرؤية لطبيعة العلاقة بين طرفي المقارنة، من خلال النظر إليها عن طريق معابير التطوير والتجاوز وتوظيف الأفكار وتلقيحها بأفكار أخرى أخذت من سياق فلسفي آخر، الأمر الذي قد يؤدي إلى تغيير ملموس في طبيعة التصورات السائدة عن تلك العلاقة بين الطرفين. ويظهر ذلك جلياً في مقارنة الخشت بين كانط و هيجل وسر تحولات هيجل في علاقته بكانط في مراحل تطوره، ولا سيما أنَّ الدكتور الخشت أثار تساؤلات عن مدى نجاح هيجل أو في علاقته بكانط في تاريخ الفلسفة، إلا في تجاوز كانط، فقد كان يرى في العلاقة بينهما علاقة استثنائية لا تتكرر كثيراً في تاريخ الفلسفة، إلا في لحظات التحول الفلسفي الكبير، مثل علاقة أرسطو بأفلاطون، وابن سينا بالفارابي، وواصل بن عطاء بالحسن البصري، وكانط بهيوم. (9)

السادس عشر: كثير من مقارنات الخشت في مقارنة الأديان خاصة في كتابيه: «تطور الأديان قصة البحث عن الإله»، «العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء»، تحاول تقديم مقارنة شاملة بين الأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية من خلال ضمّها في حقل واحد، بحيث تتيح الفرصة لرؤية أوسع للنظر إلى العقائد الإنسانية من أكثر من زاوية، وبحيث لا تغفل المقارنة منجزات علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، والأنثر وبولوجيا الدينية، وهو بذلك يتخذ منهجاً مخالفاً للسابقين في دراسة الأديان؛ حيث كان التركيز ينصبُ إمًا على مقارنة الأديان وحدها، أو مقارنة الفلسفات وحدها، أو دراسة الدين فلسفياً كما في فلسفة الدين، أو دراسته من خلال علم النفس الاجتماعي، أو علم النفس الديني.

<sup>9</sup> انظر الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان، في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م، ص 6



السابع عشر: وفي مجال مقارنة الأديان خاصة في الكتابين السابقين اتخذت المقارنة منحى جديداً؛ حيث قامت بتوسيع أفق علم مقارنة الأديان ليتحول من مجرد علم وصفي في العصور الحديثة إلى علم نقدي فلسفي، يجمع بين الوصف العلمي والتحليل الفلسفي والنقد العقلي الملتزم بمعايير المنطق، فضلاً عن مقارنة ما تقوله الأديان عن العالم، وما تقدمه منجزات العلوم الطبيعية من قوانين وثبوتها بطرق وصفية، بحيث يخرج منها ما لا يزال في طور النظرية أو التجريب.

الثامن عشر: ولئن كان الخشت قد حاول جاهداً توظيف المناهج العلمية والفلسفية الحديثة في مقارناته عن الأديان، فإنَّه يمكن القول إنَّه استفاد بشكل واضح ـ بلا شكَّ ـ من جهود مناهج النقد التاريخي، ومناهج نقد النص، والنقد الشكلي، بل ومناهج الأصوليين، كما استفاد من جهود المدرسة التحليلية، واللاهوتيين الأحرار والعقلانيين، ونتائج علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، بحيث يمكن القول إنَّ المنهج المقارن عند الخشت كان منهجاً مركباً لا يقف عند حدود المقارنة، وإنَّما يتعداها إلى الوصف والتحليل والنقد، كل ذلك حسب السياق الذي يبحث فيه والموضوع الذي يتناوله.

#### رابعاً: التأسيس الموضوعي

إنَّ منهج الدكتور الخشت يتجه مباشرة إلى عرض نماذج واضحة محددة للفكر الفلسفي تكشف لنا عن اتجاهاته الأصيلة وخصائصه الذاتية، فهو إذن يتجه رأساً إلى تلك الموضوعات المحددة من التفكير الفلسفي ليتخذها مادة لنوع من الدراسات المركزة التي تعنى بالأفكار أكثر ممًّا تعنى بالتفاصيل التاريخية.

وقد أثار الدكتور الخشت من خلال هذا المنهج الموضوعي مشكلات كثيرة ومحددة ودرسها دراسة مقارنة، مع القدرة على الخروج منها بحلول مقبولة، معتمداً في ذلك على عمليتي: التحليل والتركيب، كالحال في دراسة الوثائق التاريخية، فدرس الموضوعات دراسة تحليلية، مردفاً إياها بنظرة تركيبية، تقوم على أساس من اختيار الآراء الرئيسة، وما يدور حولهما من تفاصيل فرعية. وللحق فهو منهج أشد صعوبة من المنهج التاريخي، حيث يضع المرء وجهاً لوجه مع النظريات الفلسفية مجردة من الحوادث التاريخية والاجتماعية العابرة التي أحاطت بنشأتها.

وقد كانت موضوعية الخشت تنبني على أساس عدم الانحياز لأي طرف من أطراف الدراسات التي كتبها، ففي كتاب المعقول واللامعقول أقام دراسته بين كانط وهيجل على أساس تحليل مقارن متعمق للأديان في تقاطعها مع الميتافيزيقا على أساس موضوعي غير منحاز؛ لاكتشاف الدين الخالص وسط ركام التحولات التاريخية والأوهام الخرافية بعيداً عن توظيفات الكهنة المشبوهة للدين، مع توجيه النقد للتفسير الشعبى القاصر لعقائده وشرائعه وتفنيد الهجوم الشكى على منابعه (10)

<sup>10</sup> انظر الخشت، السابق، ص 3



ومن سمات الموضوعية عند الخشت أنَّها كانت تتميز بالحيادية التي قوامها أمران: أمر موضوعي يتمثل في تقديم أفكار الفلاسفة والمفكرين بأمانة تامة، وأمر ذاتي يتمثل في الموقف الإيديولوجي النقدي الذي يتخذه الخشت ممَّا يتناوله بالدراسة. ومن ثمَّ فلم يكن من أولئك النفر الذين يعلنون الحياد في دراساتهم، ولكنَّهم يبطنون داخلهم الانحياز البغيض والتعصب للفكرة والمذهب، وإن كان على نحو غير مباشر، وإنَّما كان الخشت حيادياً، غير أنَّ حياده ينتهي بانتهاء شرح وتحليل الأفكار الفلسفية عن المجتمع المدني مثلاً على نحو يجعلها واضحة أمام القارئ، وإن كان هذا لا يمنعه من انحيازه لموقف إيديولوجي معيَّن تظهر فيه مواقفه النقدية من هذه الأفكار، وقد ظهر هذا واضحاً جليًا في كلّ أعمال الخشت الفلسفية. (١١)

لقد كان يدرك أنّه من البدهي أنّ قراءة الموقف الجزئي لمفكر ما لا تكتسب دلالتها الموضوعية دون وضع هذا الموقف الجزئي في إطار الموقف العام الكلي، ومن ثمّ فقد كان ينظر بدءاً نظرة كليّة للمشروع الفلسفي العام الذي يرتئيه الفيلسوف أو المفكر محل الدراسة؛ إذ بدون هذه النظرة لا يمكن فهم موقفه من القضايا الفلسفية، خاصة وأنّه كان يدرك خطورة النظر إلى المواقف الجزئية كجُزُر منعزلة بعضها عن بعض، ومن ثمّ فقد كانت هذه المواقف لا تمثل له جُزُراً منعزلة، وإنّما كانت عنده كالأواني المستطرقة التي تتفاعل محتوباتها تفاعلاً تاماً.

ومن مظاهر الموضوعية عند الخشت أنّه كان ينتقد فكرة المطالبة بالمساواة المطلقة بين الجميع، لأنّ من يطالب بهذا لا يفهم أنّ «المساواة المطلقة» ضدّ «العدالة». ولئن كانت هذه النظرية تحتاج إلى توضيح على مستويات عديدة: سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية، فإنّه توقف عند المستوى الديني فقط؛ لأنّه أقرب صلة بمجال تخصصه الفكري. يقول الخشت: «فأنا أفهم أنّ هناك «مساواة» في حرية العقيدة، لكن لا أفهم كيف أساوي بين المسلم والمسيحي في كلّ شيء؟ إنّ المساواة بينهما ضدّ «العدالة»: ضدّ العدالة مع المسيحي، وضدّ العدالة مع المسلم. فقل لي بالله عليك: هل يستوى الاثنان في حكم أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وفي حكم تداولهما؟ وهل يستوى الاثنان في أحكام الزواج والطلاق وسائر الأحوال الشخصية؟ إنّ العدالة» تقتضي النفرقة بينهما في الأحكام الدينية لا المدنية، فكيف نرفع شعار «المساواة المطلقة» في كلّ شيء؟ ... فالعدالة تستوجب التمييز؛ لأنّ هناك أموراً مشتركة تقتضي المساواة، كما أنّ هناك أموراً مستقلة تقتضي «عدم المساواة» تحقيقاً للعدالة مع الطرفين» (12).

<sup>11</sup> انظر على سبيل المثال المجتمع المدنى، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط الأولى، 2004م ص 7

<sup>12</sup> الخشت، لا للمساواة نعم للعدالة، بوابة الوطن، 5/10/2013م. 5/10/2013م. http://www.elwatannews.com/news/details



#### خامساً: غلبة الروح النقديّة

سعى الدكتور الخشت من خلال دراساته إلى الاستناد على المنهج النقدي، ويظهر هذا النقد أشدّ ما يكون وضوحاً في دراساته عن نقد فلسفة العقائد المسيحية عند ليبنتز، ومقارنته بين كانط وهيجل في كتاب المعقول واللامعقول في الأديان؛ حيث وجّه النقد فيه لأكبر محاولتين في تاريخ الفكر الغربي لفحص الدين عقلانياً: الأولى: هي العقلانية النقدية عند كانط، والثانية: العقلانية المنحازة عند هيجل، ونستطيع من خلال ذلك أن نحدد أهم الأهداف التي ارتآها الدكتور الخشت من وراء منهجه النقدي:

الأول: إعادة التفكير العقلاني الحر في الدين من حيث هو دين.

الثاني: تحليل ماهية الدين وماهية الفلسفة.

الثالث: تحديد العلاقة بين الدين والفلسفة والنقل والعقل.

الرابع: معرفة موقف الأديان العالمية من قضايا مثل: الألوهية، الوحي والنبوة، المعجزات، ماهية العبادة ووظيفتها، مشكلة الشر، الحياة الأخرى.

الخامس: معرفة منطق تطور الأديان.

لقد هداه منهجه النقدي إلى كشف تناقض بعض أعلام الفلسفة الغربية، وخير مثال على ذلك نقده لصاحب العقلانية المنحازة هيجل، فقد وجد الدكتور الخشت أنَّ سر تناقضه يكمن في أنَّه جعل المسيحية حداً نهائياً مكتملاً لتطور الروح الديني، مع أنَّ نسقه بحكم منهجه الجدلي كان ينبغي أن يظل مفتوحاً والخشت بنظرته الثاقبة اكتشف هذا - لأنَّه كان يؤمن بأنَّ هيجل قام بفتح النسق الفلسفي المغلق عند كل من اسبينوزا وكانط، بإدخال فكرتي الصيرورة والتاريخ عليه؛ حتى يتمكن من تطويره والوصول به إلى آفاق رحبة غير ساكنة، لكنَّ الدكتور الخشت وجد أنَّ هيجل اضطر إلى غلقه مرة أخرى بدافع انحيازه المسبق لكل من المسيحية والملكية البروسية عندما جعل المسيحية هي نهاية الروح الديني، بوصفها الدين المطلق عنده، وعندما جعل الملكية البروسية قمَّة النضج السياسي ونهاية التاريخ ونظر إلى فلسفته باعتبارها الفلسفة المطلقة النهاية المعبرة عن تطور الروح واكتماله. وقد كانت هذه الفكرة الهيجلية مثار نقد الخشت الممتز بالتعجب والاستنكار، باعتبار أنَّ الروح الجدلية لمنطق هيجل كانت تحتم عليه ألا يقع في مثل هذا التناقض الضخم الذي كان في غنى عنه لو سار مع تلك الروح الجدلية حتى آفاقها المنطقية غير النهائية، دون أن يقف عند مرحلة تاريخية معينة، ففكرة السلب الهيجلية العميقة تجعل التاريخ - كما يؤكد الدكتور الخشت - مفتوحاً غير مكتمل دوماً، لكن الانحياز الإيديولوجي - وما أقوى تأثيره على المرء في نظر الدكتور الخشت - هو غير مكتمل دوماً، لكن الانحياز الإيديولوجي - وما أقوى تأثيره على المرء في نظر الدكتور الخشت - هو



المسؤول عن تخلي بعض الفلاسفة عن أسمى منجزاتهم العقلية من أجل بناء مذهب فلسفي منحاز، وعندما ينحاز المذهب فما أكثر عثراته وتناقضاته!(13)

ويتَّسم الموقف النقدي عند الخشت بمجموعة من السمات:

أ - كان يبني نقده على أسس موضوعية صرفة، وتوسُّلاً للأمانة والموضوعية كان يحرص على إرجاء النقد إلى ما بعد الوقوف على الشرح النصّي، وقد تجبره الأمانة العلمية أن يؤخر النقد الشامل الكلي إلى نهاية در استه، وإن كانت الظروف تفرض عليه حينها توجيه بعض الانتقادات الجزئية التي تفرض نفسها على السياق، وخير مثال على ذلك انتقاداته في كتب مثل:

- فلسفة العقائد المسبحبة
  - العقلانية و التعصب.
- العقل وما بعد الطبيعة.
  - الميتافيزيقا
- الفلسفة الحديثة قر اءات نقدية.

ب ـ النقد الذي كان يوجهه الخشت في در اساته يعبّر عن وجهة نظره الخاصة المبنية على قراءات متأنية لموضوع الدر اسة الذي يتناوله، وليس نقداً مستعاراً من أحد، أو من التاريخ النقدي للسابقين، غير أنّه إذا كان ثمّة نقد سبقه إليه غيره أشار إلى ذلك بكل تواضع.

ويكفي أن نعلم أنّه بناءً على هذه السمة فقد نقد النزعة العدمية التي جاءت لترفض المذاهب الفكرية التي تدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة واليقين والمعنى الأوحد، كما تجلت عند نيتشه وهيدجر وفرويد وغير هم. وجاءت حركات ما بعد الحداثة لتسير على هذا المسار من العدمية. وهو مسار له جذوره في الفكر القديم، فإنّه كحالة ميز ما بعد الحداثة كنوع من التمرد الذي مارسه بعض الفلاسفة على الأنساق والمنظومات الإيديولوجية نتيجة المآسي التي انتهت إليها، والأزمات التي وقعت فيها، والسلبيات التي تمخضت عنها، وأوقعت فيها الإنسان المعاصر مثل الحروب العالمية والاستعمار، ووصول الجماعات المتطرفة التي تملك وسائل القوة إلى الحكم، وتدمير البيئة واستنزاف مواردها، والتناقضات في الأحكام، وازدواج المعايير، وزيف «العلامات»، والخداع الإعلامي الذي يصنع عالماً فوق الواقع ومغايراً له، ... إلخ. (14)

<sup>13</sup> انظر الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان، ص ص 5، 6

<sup>14</sup> الخشت، مقال العدمية، مقال غير منشور.



ج - النقد عند الخشت نقد فكرة ونقد منهج، ولم يكن يهمّ فقد الشخص، وكم كان يهمّ فقد الفكر والرأي والاتجاهات والتيارات! ومن ثمّ فهو نقد غير مبني على تعصب أو عداء. وقد وجدناه ينقد التفكيكية دون أن يجرح بالنقد أشخاصها، ليس حبًا لهم، وإنّما هو ترسيخ للمنهج العلمي القائم على أنّ النقد نقد فكرة وليس نقد شخص. ومن ثمّ فقد كان يرى في التفكيكية تمرداً على أنساق الحداثة، فبعد أن سقط الوعي الأوروبي المعاصر في حالة من الصورية والشكلانية مع البنيوية، كان سقوطه الثاني في التفكيك المروع مع جاك دريدا ورفاقه في مرحلة ما بعد الحداثة التي تنكرت لكلً مرجع، وألغت كلً مركز، ونفت كلً جوهر، ودعمت اللامركزية والتشظي. «إنّ التفكيكية مدرسة تقويض ونقد شامل دون أيّة محاولة لإعادة البناء، وهي تنكر وجود أيّة قيمة مطلقة، وتقوّض فكرة الحقيقة الموضوعية، وتحطّم التمركز حول العقل، وتزعزع الفكر الغربي - بل والإنساني - الذي يقوم على مفهوم «المركز الثابت للفكر» مثل المعنى أو الذات أو الحقيقة أو فكرة السببية. وتنظر إلى «النص» باعتباره ممزّق المعنى ومفكّك الدلالة، فليس له وحدة معنى وليس له فكرة السببية. وتنظر إلى «النص» باعتباره ممزّق المعنى ومفكّك الدلالة، فليس له وحدة معنى وليس له مركز ثابت. أمّا الشخصية الإنسانية فقد ذهبت هباء؛ فلا وحدة لها، ولا ذات تلمُّ شتاتها». (١٤)

وتتجلى تهافتات النزعة التفكيكية ـ كما صوَّرها الخشت ـ في «ما بعد الحداثة» في تأكيدها على عجز اللغة عن أداء المعنى، ووجود تفسيرات غير محدودة ممكنة للنص، مع غياب القدرة على الترجيح بين المعاني؛ ومن ثمَّ ضياع النص؛ ناقداً ما يقوله جاك دريدا من أنَّه لا يكون النص نصاً إن لم يُخْفِ على النظرة الأولى، وعلى القادم الأول، قانونَ تأليفه وقاعدة لعبه. وليس معنى هذا أنَّ قاعدته وقانونه يحتميان في امتناع السر المطوي، بل إنَّهما، وببساطة، لا يُسلمان أبداً نفسيهما في الحاضر لأيّ شيء ممَّا تمكن دعوته بكامل الدقة إدراكاً وذلك بالمجاز فة دائماً أي من لدن النص، وبفعل جوهره نفسه، بالضياع على هذه الشاكلة نهائياً. من سيفطن لمثل هذا الاختفاء أبداً؟ يمكن لخفاء النسج بأيّة حال أن يستغرق، في حلّ نسيجه، قروناً». (16)

ومن ثمَّ فكلُّ قراءة عند الخشت ليست مطلقة، وكلُّ تأويل هو عنده نسبي، وكلُّ محاولة لإدراك النص ليست نهائية؛ «فالنص يظلُّ يُمعن في الخفاء أبداً، والإنسان «سجين اللغة»، ولا يستطيع عبورها إلى الواقع، بل إنَّ اللغة هي مرآة غير دقيقة للواقع الذي نعرفه من خلالها، والإنسان لا يستطيع تجاوز ذاته إلى حقيقة ما خارج الذهن، فالموضوعية غير ممكنة؛ ولا شك أنَّ في هذا عوداً من جهة للذاتية المفرطة المنكرة لوجود المعنى الموضوعي، وعوداً من جهة أخرى للَّاإراديَّة التي نعتبرها إحدى جذور النزعة العدميَّة.»(17)

وبالقدر نفسه الذي نقد فيه الخشت التفكيكية نقد الوضعية، ولم يكن يهمه نقد الشخص وإنّما الذي كان يهمه نقد الفكرة التي تحمل الوضعية بمختلف صورها، ونقد الوضعية عند الخشت كان نقداً مبنياً على أسس عقلية وواقعية واضحة، ويستخدم الخشت في نقده للوضعية منهجية ضرب الأمثال ببراعة، يقول ناقداً: «إنّ

<sup>15</sup> الخشت، مقال التفكيكية، مقال غير منشور

<sup>16</sup> الخشت، السابق.

<sup>17</sup> الخشت، السابق.



العالم أوسع بكثير ممًا يظن الوضعيون؛ فهم أشبه بمجموعة يجلسون بين جدران بيت مغلق يحسبونه الوجود كله، ويعجزون عن الوصول إلى الواقع وإدراك أنَّه أكبر من أن ينحصر في هذه الجدران الضيقة؛ لأنَّهم على تنوعهم يقصرون مجال المعرفة على الظواهر العينية أو الإحساسات الذاتية، ويضعون مهمة الفلسفة والعلم إمَّا في جانب ضيق هو التحليل المنطقي للغة في حالة الوضعية المنطقية، وإمَّا في العلم الوضعي في حالة الوضعية الاجتماعية عند كونت، وفي حالة الوضعية العلمية عند رينان»(18).

ولم ينقد الخشت الوضعية هباءً، وإنّما نقدها لمضمونها غير الهادف؛ إذ لم تقدم الوضعية بكلّ صورها في رأيه - ورأينا أيضاً - أيّ حل للمسائل الفلسفية الكبرى التي تشغل الإنسان، من قبيل: أصل العالم، ومصيره، وحرية الإرادة. وجاءت الوضعية الجديدة لتواصل هذا القصور؛ إذ لم تتمكن من تبين أنّ الحقيقة تكمن في العالم الخارجي الواقعي وفي النفس الإنسانية (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق). ومن ثم عجزوا بمختلف تياراتهم عن تقديم بديل للدين أو الأنطولوجية. (١٩)

## محاور الخطاب الفلسفي عند الخشت:

نستطيع من خلال استقراء كتب الدكتور الخشت أن نفهم كثيراً من المذاهب الفلسفية القديمة والمعاصرة التي يدين بها، والتي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، وهي مذاهب ـ في التحليل الأخير - تجمع بين الشرقية والغربية، القديمة والحديثة تدل بالأحرى على أن فيلسوفنا كان يبحث عن الحقيقة أيًا كان مصدرها، لا يهمه في ذلك صعوبة الجهد المبذول للوصول إليها، ولا بعد هذه المصادر عن دائرة الثقافة الإسلامية. والحق أنَّ مذهب الدكتور الخشت يتشكل من اتجاهات شتى: فنجد لديه بُعداً عقلياً صرفاً، ومنطقياً فانقاً، وسياسياً مدنياً، وإصلاحياً تنويرياً، وفقهياً معتدلاً، ووسطياً عقدياً فإنَّ هذه الفروع المذهبية كلها تؤلف المذهب العام الذي وإصلاحياً تنويرياً، وفقهياً معتدلاً، ووسطياً عقدياً فإنَّ هذه الفروع المذهبية كلها تؤلف المذهب العام الذي أراده وارتآه الدكتور الخشت. وهي كلها يمثل الولوج فيها خروجاً بإشكاليات وقضايا تصلح للأخذ والرد والمناقشة، وهذا بدوره هو ما صنع الدكتور الخشت الذي نعرفه، فلم تكن تستهويه الموضوعات المرتادة أي التي سبق قتلها بحثاً، أو تلك الموضوعات التي لا تحتوي على مناوشات ومناقشات وردود وتفسيرات. وإنّما ارتناد أرضاً خصبة، فدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ودرس مقارنة الأديان، واتجه بفكره إلى الفقه، وفي الأخلاق ارتضى الحد الأدنى الأخلاقي المشترك، وغيرها من الموضوعات المهمة والجادة.

ويمكن القول إنَّ الدكتور الخشت ولج أغلب فروع الفلسفة ـ إن لم يكن كلها ـ ولكن كان مهتماً في ولوجه هذا بالابتكار والابتعاد عن التقليد، وإبراز وتبني الرأي الحر الذي لا يقلد فيه آخرين، وإن ارتأى رأياً لسابقيه يعجبه دلل عليه ببراهين وأدلة من عنده كدليل على تمسُّكه به وكما يمكن تطبيق هذا الأمر على ولوجه في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، والإصلاح، والفكر العالمي، ومناهج البحث، فكذلك يمكن تطبيقه في ترجماته،

<sup>18</sup> الخشت، مقال الوضعية: العجز عن الوصول إلى الواقع، مقال غير منشور.

<sup>19</sup> الخشت، السابق.



وقد رأينا كيف يختار الكتب ذات الموضوعات والنظريات الحديثة التي تفيد أرض الشرق، والوطن العربي كله، ممًّا يساهم في إحداث ثورة ثقافية فيها.

إذن فلنا أن نقول إنَّه كان أكثر توافقاً مع نفسه ومع مذهبه في الحياة، ومذهبه السياسي، ومذهبه العلمي والمعرفي، بحيث تكوِّن هذا المذاهب كلها منهجاً متسقاً واحداً للخشت المفكر والسياسي والفيلسوف.

وإذا أردنا الحديث عن مذهبه تفصيلاً وجب علينا أن نفهم موقفه من التيارات الفلسفية والفكرية التي كانت ـ وما زالت ـ شائعة في عصره والعصور السابقة عليه، ولماذا كان يدين بهذا الاتجاه دون غيره؟

ومن ثمَّ فإنَّ الخطاب الفلسفي عند الخشت يقوم على المحاور الآتية:

أولاً: بناء فلسفة عقلانية

أوَّل ما يلفت النظر في دراسة الدكتور الخشت للفلسفة الغربية أنَّه كان يقف منها موقف الند للند، لا الند بمعنى الخصم، ولكن الند بمعنى النظير المشارك الفعَّال الذي لا يقلُّ الفكر الذي يمثل هويته وعقيدته عن الفكر الغربي، ومن ثمَّ فقد غلبت عليه حماسة بالغة، تلك الحماسة البالغة التي يظهر ها في الدفاع عن الفلسفة العربية التي يمثلها ضدَّ موجات الافتراء والتشويه التي تعرضت لها، محاولاً - في توفيق- إظهار الوجه النقي والحقيقي له ولفلسفته التي بإمكانها بعث الأمَّة بعثاً جديداً نحو التطور والارتقاء. لقد كان الدين يواجه مواجهة طاغية من رجال الفلسفة والفكر الغربي من أمثال: هيجل، وكانط، ورينان، ومن سار على نهجهم حيث ذهبوا - قصداً أو جهلاً بمؤلفاتنا وجهودنا - إلى أنَّ الدّين لا دور له في بناء أيّ تقدم حضاري ترجوه الإنسانية.

فجاء الدكتور الخشت وشرح فلسفة الدين كما يراها العقل والدين الإسلامي، فحرث في أرض خالية، وسار ضد التيار مدافعاً عن فلسفة عقلية يريد أن يفني حياته من أجلها وفاء لعقيدته و عقله، ولفت النظر إلى تلك الآراء الخاصة التي تعج بها مؤلفاته الشخصية التي تهدم ما ذهبوا إليه من أساسه. لقد ساهم الخشت في إنقاذ الفلسفة الدينية من الافتراء الذي لحق بها شرقاً وغرباً. لقد أبى أن يكون مقلداً لهؤلاء الفلاسفة الغربيين في موقفهم من الدين، رافضاً أن يردد ما يرددونه، رافضاً في الوقت نفسه موقف من سار على دربهم من بني جلدتنا ممن أخذوا يرددون ما قاله هؤلاء الفلاسفة، فصاروا - في رأيي - أقصى وأشد على الفلسفة الدينية من هؤلاء الفلاسفة أنفسهم، ففصلوا بين عقلانيتهم وعقيدتهم.

ويظهر فكر الخشت في نقد الفلسفة الغربية من خلال المؤلفات الآتية:



- الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم (20).
  - مدخل إلى فلسفة الدين(21).
- العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط.
  - أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط.
    - العقلانية والتعصب (22).

فعلى سبيل المثال نقد الخشت رينيه ديكارت (1650-1596) عندما ادَّعى كثيرون أنَّ فلسفته فلسفة الوضوح والتميز ؛ ممَّا يعني أنَّها فلسفة واضحة الدلالة ولا تحتمل أكثر من تفسير ... ، ومن ثمَّ فإنَّه كان ينظر إلى هذا الادعاء على أنَّه ليس حقيقياً ، وأنَّ الفلسفة الديكارتية لم تكن محكمة الدلالة ؛ لأنَّها على العكس كانت فلسفة تثير الاشتباه أي تحتوي على نصوص ومواقف فلسفية متشابهة ، فقد أكد الخشت على أنَّ ثمَّة ثنائية في فلسفة ديكارت ، تكشف عن تناقضات في مواقفه ، فلم تكن العقلانية أمراً محسوماً فيها ، بل كانت هذه العقلانية مجرَّد قناع أخفى وراءه ديكارت اتجاهاته اللاهوتية ، ومن ثمَّ كان الخشت مؤصلاً لنظرية الاشتباه الفلسفي التي لم يفطن إليها الكثيرون من المعاصرين (23).

على أنّه ينبغي التأكيد على أنّ المتشابه عند الخشت ـ وهو في سبيل نقده لديكارت ـ لا يكون في الألفاظ فقط، بل قد يكون في العبارات والنصوص الكاملة؛ ومن الجائز أن يكون الاشتباه كذلك في النسق الفلسفي ككل؛ فالاشتباه سمة لكلّ ما يحتمل تفسيره أكثر من دلالة، ومن هنا قد تكون فلسفة عنده بأكملها متشابهة (<sup>24)</sup> وقد عوَّل الخشت على ما سبق أن استخدمه حسن حنفي من مفهوم الاشتباه في عدد من دراساته الفلسفية. وعلى سبيل المثال استخدامه له في دراسته لفلسفة هيجل. وفي سياق بيانه للاشتباه في الفكر الديني عنده، حيث أشار إلى أنَّ الاشتباه "يعني وجود المتعارضين في آن واحد، وإمكان الحكم على الموقف كله ابتداء من أحد المتعارضين، وبالتالي وجود حكمين متعارضين على شيء واحد"(<sup>25)</sup>، وبهذا المعنى للاشتباه قرأ

<sup>20</sup> ط القاهرة، دار قباء / 1997م.

<sup>21</sup> ط القاهرة، دار قباء، 2001م.

<sup>22</sup> ط القاهرة، دار نهضة مصر، 2007م.

<sup>23</sup> الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، القاهرة، دار قباء، الأولى، 1998م ص 70

<sup>24</sup> انظر الخشت، السابق، ص ص 73، 74

<sup>25</sup> د. حسن حنفي، قضايا معاصرة: في الفكر الغربي المعاصر الجزء الثاني، بيروت، دار التنوير، ط1، 1982، ص 156



حسن حنفي كذلك فلسفة ديكارت، فهي تنطوي على مواقف متعارضة (26)، ولذا يتساءل: "هل موقف ديكارت بالنسبة إلى الدين موقف المفكر الحر أو موقف المبرر التقليدي ولكن بأسلوب أذكى وبطريقة أوضح؟" (27).

ومن هذا الطرح الإشكالي لنقد الخشت للموقف الديكارتي من الدين انبثقت عدة أسئلة حول فلسفة ديكارت: فهل فلسفة ديكارت فلسفة متشابهة تحتمل أكثر من معنى أم أنّها فلسفة محكمة الدلالة؟ هل فلسفة ديكارت فلسفة تنظوي على مواقف غير واضحة ومتميزة أم فلسفة تعطي نموذجاً للفكر الواضح والمتميز؟ هل هي فلسفة عقلانية أم لاهوتية؟ هل العقلانية أمر محسوم فيها أم أنَّ العقلانية مجرَّد قناع أخفى وراءه ديكارت اتجاهاته اللاهوتية؟ هل هي فلسفة تتخذ نقطة البدء فيها من الإنسان أم من الله...؟ من الفكر الخالص أم من الضمان الإلهي؟ وأخيراً هل هي فلسفة تعتمد على معيار الوضوح والتميز في معرفة الحق من الباطل أم تعتمد على الصدق الإلهى؟(28)

يقول الخشت ناقداً أحد أعلام الفلسفة الغربية في تأكيد واضح على نظرية الاشتباه: "هذه الأسئلة يسعى هذا البحث لمحاولة الإجابة عنها. وقد دفعنا إلى إثارتها أنَّ فلسفة ديكارت فلسفة تشتمل على نصوص متشابهة بالمعنى الذي أوردناه سابقاً، وأنَّ نسقه الفلسفي في علاقته بالدين محل اشتباه في تفسيره، ذلك أنَّ ديكارت يُعدُّ من بين الفلاسفة الذين أثاروا نوعاً من الجدل في تاريخ الفلسفة، بالرغم من المقولة الشائعة عنه من كونه فيلسوف الوضوح والتميز والعقلانية الخالصة، ولو كانت هذه المقولة صادقة لما كان ديكارت مثيراً للجدل حول طبيعة موقفه الفلسفي في علاقته بالدين؛ فتعدُّد التفسيرات وتباينها أكبر دليل على أنَّ النسق الديكارتي غير واضح، وأنَّ منهجه يتسم بالغموض أحياناً، وعدم الصرامة المنطقية في أحيان أخرى، بل منبعاً لمدرستين متباينتين في الفلسفة الحديثة" (29).

وإذا كان أغلب المؤرخين يعتبرون ديكارت "أباً للفلسفة الحديثة"، وأنّه معروف بهذا عالمياً، باعتباره مؤسساً لنسق فلسفي عقلاني انطلاقاً من الفكر الخالص ذي الوضوح والتميز، وهذا لم يرتضه الخشت، فاتجه إلى تمحيص هذا الادعاء ووضعه على ميزان البحث؛ فما العقلانية الديكارتية عنده بأمر تدل عليه نصوص ديكارت دلالة قطعية الدلالة، فنظر إلى فلسفة ديكارت ككل، وليس إلى بعضها فقط، فوجد نصوصاً تدل على وجود اتجاه لاهوتي في تفكيره، وهو ما استدعاه إلى إعادة النظر في فلسفته عامة وفي فكره الديني خاصة انطلاقاً من مفهوم الاشتباه، كما كان يستدعيه تساؤل مؤداه: هل العقلانية مجرّد مظهر أخفى ديكارت وراءه اتجاهاته اللاهوتية التي لا

<sup>26</sup> انظر: د.حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية، 1991، ص 250 وما بعدها.

<sup>27</sup> د. حسن حنفي، قضايا معاصرة، ج2، ص 157

<sup>28</sup> الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، ص ص 73، 74

<sup>29</sup> الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، ص ص 74، 75



تخرج عن كونها عقائد المسيحية وقد ارتدت لباس الفكر الخالص ورفعت لواء العقلانية الحديثة؟ وهذا ما انتهى إليه بالفعل.

كما بدا نقد الخشت للفلسفة الغربية في موقفه من الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس؛ حيث بدا له وليم جيمس في تأسيسه للاعتقاد على الإرادة وكأنّه يعطي معنى جديداً للطريقة اللاهوتية في الإيمان دون برهان "آمن ثم تعقل"، وكأنّ ما يقوله جيمس هو على حد تعبير الخشت - نبيذ قديم في زجاجة جديدة. فهذه هي طريقة اللاهوت المدرسي مصاغة بلغة فلسفية براجماتية. وقد نقد الخشت ذلك؛ لأنّ مبدأ "آمن ثم تعقل" هو مبدأ اللاهوت، وهو المبدأ الذي وجده مخالفاً لمبدأ الأنبياء، فمبدأ الأنبياء أنفسهم في دعوتهم إلى الدين يبدأ بتقديم البرهان بمعنى ما، أو الدليل، فهذا موسى عليه السلام يُقدّم المعجزات الحسيّة، ومن بعده عيسى عليه السلام يسير على الدرب نفسه، كبراهين أو بمعنى أدق أدلة على صدق دينهما، أي أنّهما يعوّ لان على الدليل كطريق للاعتقاد، وليس على الإرادة. "وإن كان من الملاحظ أنّ منهجهما في التدليل غير مباشر، على الدليل من داخل الدين نفسه، وإنّما من آيات خارجية طارئة هي المعجزات. فهو برهان غير مباشر، أو إذا شننا الدقة الإصطلاحية هو دليل غير مباشر؛ لأنّ البرهان غير المباشر له معنى اصطلاحي لا ينطبق على هذه الحالة". (30)

ومن ثمّ فقد نقد الخشت الفلسفة الغربية لا نقد تعصُّبِ مذهبي أو عرقي أو عقدي؛ لأنّه وهو في سبيل تأسيس منظوره العقلي لا يبغي غير ما يوافق العقل، وبما أنّ الشرع عنده لا يخالف العقل، فهو ينطلق من أرضية عقلية عقدية. ولئن كانت المسيحية قد واجهت دوماً تحديات كبرى، فإنّ الخشت كان يرى أنّ موجة نقد العقلانية التي تعرّضت لها في القرن السابع عشر كانت واحدة من تلك التحديات الكبرى التي قابلتها في تاريخها الطويل؛ إذ لا تقلُّ في خطورتها وقدرتها على التهديد في الوجود عن موجات العنف التي تعرضت لها في بداياتها، كما أنّها كانت تجد دوماً في كلّ تحدِّ من هذه التحديات من يدافع عنها ويأخذ بيديها؛ لكي تستمر في الوجود. ولذا كان ليبنتز ـ عند الخشت ـ أحد الأفكار الدالة على تقليله من قيمة العقل لصالح العقيدة، فقد كان من أولئك النفر الذين عملوا بجدية للدفاع عن المسيحية بداعي قدرتها على مواجهة موجة النقد العقلانية التي كانت علامة فارقة من علامات عصر العقل، عصر القرن السابع عشر. (١٤)

#### ثانياً: بناء نسق وسطى معتدل

وهي الصفة الثالثة التي يمكن استخراجها من إنتاج الدكتور الخشت الفكري، وتطالعنا هذه الصفة أول ما تطالعنا في مقدمته الشهيرة «تطور الأديان قصة البحث عن الإله»(32)، وكتاب «العقائد الكبرى بين حيرة

<sup>30</sup> الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس، مجلة كليَّة الأداب، جامعة القاهرة، عدد4، 2001م.

<sup>31</sup> انظر فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، القاهرة، دار قباء، 1998م، ص 7

<sup>32</sup> ط القاهرة، مكتبة الشروق، 2010م.



الفلاسفة ويقين الأنبياء»، (33) وهما الكتابان اللذان يمثلان تحليلاً مميزاً للأديان من ناحية قبولها للعلم أو الوقوف ضده، مؤكداً على أنَّ الدين اكتسب مكانته - إلى جانب أمور أخرى - بما يتضمنه من احترام للعقل ووضعه في المكانة اللائقة به، في حين وقفت أديان أخرى عند حدود النص متجاهلة مخاطبة العقل الذي يُعدُّ الميزة الأساسية التي يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات.

أراد الدكتور الخشت وسطية دينية من نوع خاص: وسطية معتدلة تمزج بين العقل والدين، فشرح الدين في ضوء العقل، ونقد العقل في ضوء الدين. لقد نقد رينان في مسألتي العلم والدين ـ وهو النقد نفسه الذي شمل كثيراً من المستشرقين ـ لأنَّ موقفه ينافي الإيمان والعقل، ثم صحَّحه في ضوء الفكر الأفغاني القائم على إثبات المسألتين بالناحيتين: الإيمانية والعقلية، ثمَّ لم يرهبه أن يوافق الأفغاني وينقد رينان في مسائل: فرعية متعلقة بهاتين القضيتين؛ إذ وجد فهماً واضحاً لموضوع العلم والدين من قبل الأفغاني استخلصه من ثنايا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ثمَّ فقد وجَّه الخشت رينان الوجهة الصحيحة التي كان عليه أن يلتزم بها في مسألة الدين والتطور العلمي، والدين والحياة عامة من خلال آراء الأفغاني. والحق أنّه ما فعل ذلك إلا لأنَّ الأفغاني يعالج جميع المسائل بالاستعانة برافدي: العقل والإيمان، ومن ثمَّ وجدناه يُعّول على رأيه الكائن بكتاب «الرد على الدهريين» كنموذج واضح على نقض الآراء التي تنتقص من الدين كأحد الروافد المعرفية العقلية في معالجة الكثير من القضايا الفلسفية (34).

ومن الجدير بالذكر أنَّ أصر ح بأنَّ الدكتور الخشت أراد الوسطية التي كان عليها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وسطية قوامها عقل ودين، أصالة وتجديد؛ إذ بها عنده ـ في رأيي ـ يتحقق للوطن العربي المسلم كلّ ما يتمنى من ألوان التقدم والازدهار والرخاء.

وبناء على هذه الوسطية نقد أسرار الباطنية والفرق الخفية في كتابه: حركة الحشاشين، تاريخ و عقائد أخطر فرقة سريَّة في العالم الإسلامي؛ حيث درسها الخشت مبيناً في وضوح القضايا الأساسية المتعلقة بهذه الفكرة، فقد درسها من حيث(35):

- الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها واضمحلالها.
  - الأصول التاريخية لحركة الحشاشين.
    - حركة الحشاشين النشأة والتطور

<sup>33</sup> طدمشق، دار الكتاب العربي، 2010م.

<sup>34</sup> انظر جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، القاهرة، ط مطبعة الموسوعات، الثالثة، 1320هـ.

<sup>35</sup> ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1988م.



- حركة الحشاشين في إيران.
- حركة الحشاشين في سوريا.
  - نظرية الوجود.
  - عقائد ما بعد الموت.
    - نظرية الإمامة.
  - التنظيم السري للدعوة.

وهي الأفكار الأساسية التي انطلق منها الخشت للتأكيد على المنزع الباطني الذي تقوم عليه أفكار الجماعة، وهي الأفكار التي يقوم عليها أيُّ اتجاه باطني، مبيناً في أناة أنَّ الفكر الباطني كان معول هدم على مرّ التاريخ الإسلامي، مؤكداً على أنَّ الجماعة كانت دليلاً على الإرهاب السياسي والعقدي، ومع ذلك فإنَّ هذا الإرهاب كان الخشت يراه على أنَّه ردُّ فعل على الإرهاب الذي تمارسه السلطة الحاكمة في مواجهة الأحزاب الأخرى، لأنَّ كلاً منهما يضع هدفاً يقوم على تقويض ما يعتبره مصدراً للشرور التي تعيث في المجتمع المعنى فساداً وتدميره تدميراً كاملاً. (36)

وتظهر وسطية الخشت الدينية في نقده وردّه لآراء وأفكار برايتمان في دراسته عن الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، وهي الدراسة التي تنتقد بشدّة التصورات الخاطئة للإله، كما تنتقد دعاوى التشبيه والتجسيم التي انطلق منها برايتمان، وعلى الرغم من أنَّ حركة برايتمان كانت تحاول الرد والإجابة على أشكال الإلحاد ومظاهره في أوروبا عن طريق الإيمان بألوهية محدودة ومتناهية في بعض جوانبها، وذات قدرات لا متناهية في جوانب أخرى، فإنَّها قدَّمت في نظر الخشت ـ وفي نظر العقل السليم - تفسيرات خاطئة عن العديد من القضايا منها: إشكالية الشر في العالم مثلاً، ومن ثمَّ فقد نقد الخشت أفكار هذا المفكّر التي تزعم الانطلاق من الخبرات الإنسانية في رؤيتها للإله كشخص متناه زمني، ومن ثمَّ فقد نقد الخشت الفلسفة التي تزعم شخصانية الإله وتناهيه وتزمنه على أساس منهج تجريبي. (37)

نقد الخشت برايتمان نقداً عقلانياً وسطياً يتأسس بالدرجة الأولى على مقتضيات إيمانية عقلية؛ إذ كيف يمكن دراسة الذات الإلهية تجريبياً؟ ألا يعني هذا وضع الإله على محك الاختبار التجريبي المتناهي وإخضاع السرمدي للزماني؟ ثم يتساءل مستنكراً: وهل لدينا من مناهج المعرفة الدقيقة ما يؤهلنا على هذا

<sup>36</sup> انظر حركة الحشاشين، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1988م، ص ص 202، 203

<sup>37</sup> انظر الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، طدار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2007 م 7: 9



النحو لوصف الطبيعة الإلهيَّة التي ليس لنا بها خبرة مباشرة مثل خبرتنا بالطبيعة الفيزيائية؟ ويواصل تساؤلاته النقدية؛ وإذا كنا فشلنا حتى الآن في الوصول إلى علم نفس دقيق بالطبيعة النفسية الإنسانية التي نعيشها، فكيف لنا أن نزعم معرفتنا بالطبيعة الإلهية؟ أليست محاولة اكتشاف الإله لا تخرج عن كونها محاولة جغرافية ترسم خريطة لمنطقة لا جغرافية؟(38)

تجلت وسطية الخشت في دفاعه عن الإسلام ضد الوضعية والاستشراق (39)، فقد كان دفاعه عن الإسلام ليس دفاعاً عن موروث ديني آمن الناس به تقليداً ومحاكاة، وإنّما كان دفاعاً عن المنهج العقلي الذي يحمله هذا الموروث، ومن ثم فقد رفض الوضعية التجريبية التي أحالت الحياة البشرية بنظرياتها الغريبة إلى صراع دائم من أجل اللذة والمنفعة، فقد رفضت أي فعل لا يحقق لصاحبه نفعاً أو لذة أو أي فعل يجلب الألم، فكان المعيار الأخلاقي هو النفعية التجريبية، كما كان الإلزام أيضاً هو النفعية التجريبية. وأمام هذا لم يكن أمامه بد من الدفاع عن القانون الأخلاقي الذي يؤمن به، ذلك القانون الذي قوامه عقل وشرع، فراح ينقد في حزم وأناة معاً تلك الوضعية التي جعلت البشرية في صراع مع النفس وصراع مع الناس.

ولم يكن الاستشراق بأسعد حالاً من الوضعية عند الخشت، فراح يبين المبادئ التي يقوم عليها الاستشراق، وهي - في الحق - المبادئ التي يقوم عليها كلّ اتجاه تعصبي يغلف نفسه بغلاف علمي، فهو اتجاه في ظاهره العلم، وفي باطنه من قبله التعصب، ومن ثمَّ فقد فطن الخشت إلى أنَّ الاستشراق يمثل إيديولوجية في عصر زادت فيه حدة التكتلات على نحو يشعل صراعاً عالمياً. نعم إنَّ الدكتور الخشت كان ينظر للاستشراق على أنَّه يمثل مخططاً للاستيلاء على مقدرات الشرق بخيراته وإمكاناته وموقعه، إلا أنَّه كان يرى أنَّ هناك بعض الدراسات الاستشراقية التي كانت إضافة إلى المكتبة العربية.

ويظهر المنهج الديني الوسطي أكثر ما يكون وضوحاً في أثناء مقارنته بين الأفغاني ورينان في مسألتي العلم والدين، حيث تبدو الروح العقدية لديه متوهجة تدل بوضوح على صدق العاطفة التي تملي عليه ذلك، فقد ردَّ بروحه الوسطية على تلك الافتراءات التي حاولت أقلام إلصاقها بالدين، تلك الافتراءات التي تزعم أنّه دين لا يأبه بالعلم، فذهب إلى إظهار الوجه المشرق للإسلام من خلال نقد رينان بآراء الأفغاني، وزاد عليه إظهار منهج الأفغاني نفسه في محاربة الإلحاد ونقده في مختلف عصوره. كما تظهر الوسطية في در استيه: «الدليل الفقهي» (40)، و «الأخلاق وأسس التقدّم» (41)؛ حيث بيَّن في الأخيرة أنَّ النهضة لا تقوم بدءاً إلا على أساس الدين والفهم الصحيح للعقيدة.

<sup>38</sup> انظر المرجع السابق، ص ص 8، 9

<sup>039</sup> انظر الإسلام والوضعية والاستشراق في عصر الإيدولوجية، طدار نهضة مصر، القاهرة، 2007

<sup>40</sup> ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1985م.

<sup>41</sup> القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2004م.



وتكشف كتابات الدكتور الخشت ـ خاصة في ثلاثة منها ـ عن دعوة فقهية تنويرية إصلاحية ثائرة بدرجة كبيرة جداً، غير أنَّ دعوته الفقهية كانت لا تنفك بحال من الأحوال عن عقله ومنهجه، فقد حمل معه العقل أينما حل، وحيث رحل، فلم يقدم عقله فريسة لاعتبارات شخصية أو مذهبية.

وممًا دفع الخشت إلى التأليف الفقهي ما وجده في الكتب التقليدية التي تناولت تلك العلوم ـ خاصة علوم الحديث ـ من صعوبات وتعقيدات، تجعل استيعاب بل مجرد فهم العلوم المعنية للطلاب أمراً من العسر بمكان؛ لما تنطوي عليه من جفاف في الأسلوب وغموض في التعبير، فضلاً عن كثرة التفريعات وعدم الترتيب المنطقي في كثير من الأحيان والإكثار من إيراد الاختلافات والأقوال المتعارضة التي يحتار معها القارئ العادي الذي لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع (42)

لقد أراد الدكتور الخشت فقهية تنويرية تقوم على القضاء على الاستبداد في الحكم، والقضاء على الاستبداد في الرأي، مع الاستناد إلى مراعاة الظروف والمتغيرات التي طرأت على عصرنا والقضايا الوثيقة الصلة بالعصر، والتي تعتبر من المستحدثات التي طرأت على الساحة الفقهية، وفي حاجة إلى ردود شافية تمنع الناس من التخبط، كل ذلك في إطار التمسك بأصول الدين الحنيف، وهي تلك الدعوة الفقهية التي اصطدمت بما هو عليه واقع المسلمين من: ضعف الأخلاق وانتشار الرذيلة والاختلاف والشقاق بينهم، والتخلي عن مبادئ الإسلام الخاصة بالنظر الفكري والأخذ بأسباب العلم النافع أيًا كان مصدره، كذلك اصطدم بما وجد عليه المسلمين من أمراض نفسية تتمثل في اليأس والجبن والتواكل وغير ها من الصفات.

ثار الدكتور الخشت حيث يكون السكوت ذلة وانكساراً، ونهض حيث يكون القعود خوراً وجبناً، فأبى الا أن يشارك في توعية الأمّة المسلمة بقضايا فقهية لا غنى لأحد عنها، فرسم طريقاً فقهياً فيه من خطا السابقين الكثير، فأرادها صحوة قائمة على مبدأين أساسيين: صحوة قائمة على الدين، وصحوة قائمة على نظام سياسي عادل، فهي نهضة دينية سياسية.

لقد أرادها ثورة على عهد التخلف والرجعية وعلى رموزها الذين رسَّخوا في عقول الشعب أسس هذا التخلف وهذه الرجعية، وكأنَّ دعوته كانت موجهة إلى تلك الشعوب المسلمة المحتلة كي تصحو من سباتها العميق، وكأنَّها كانت أيضاً موجّهة إلى تلك الشعوب المسلمة التي نالت حظها من الاستقلال بأن تخشى من الوقوع فيما وقع فيه المستبد الخارجي؛ لأنَّ معنى وقوعها فيه استبدال مستبد بمستبد آخر. وخير مثال على النوع الأول من الدعوة دراسة الخشت: الأخلاق وأساس التقدم.

وقد قدَّم لنا الخشت في باب الفقه مجموعة من الكتب القيّمة في الموضوع والمنهج، نذكر منها:

- الدليل الفقهي.

42 الخشت، مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه، القاهرة، مكتبة القرآن، 1987م، ص 1



- المشاكل الزوجية وحلولها في ضوء الكتاب والسنَّة والمعارف الحديثة.
  - المرأة المثالية في أعين الرجال.
  - فتاوى المرأة المسلمة في العبادات والمعاملات.
    - مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه.
  - وليس الذكر كالأنثى، دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة.
    - كتاب الصلاة.
    - كتاب فهم الصلاة.

وهي كتب يظهر فيها الميل الشديد للاهتمام بالإنسان المسلم من حيث كيفية معالجته لمشاكله واحتياجاته الدينية والعقدية والعبادة والمعاملات، بل إنَّ هذه المؤلفات تظهر اهتماماً شديداً بالمرأة المسلمة، حيث تعمَّق الخشت في البحور الفقهية بهدف تكوين رأي شامل حول مكانة المرأة في الإسلام من حيث التكريم والحقوق والواجبات، وتُعدُّ آراء الخشت الفقهية ـ خاصة ما يتعلق منها بالمرأة - صيحة تنوير ضدَّ كلّ الآراء المتطرفة، وضدَّ كلّ التفسيرات المشبوهة الممتزجة بالمصالح والمداهنات.

#### ثالثاً: نقد الفلسفة الغربية

يظهر من خلال مؤلفات الدكتور الخشت النقد الصريح للفلسفة الغربية، ولا يحمل معنى النقد عنده التركيز على أوجه القصور والسلبيات فقط، بل كان يحمل إلى جانب ذلك التأكيد على مواطن القوة والإشادة بها، فكان نقده بذلك نقداً موضوعياً يلتمس مواطن القوة من خلال الأفكار البناءة التي تساهم في إعلاء صرح الفلسفة الحديثة على كافة المستويات.

فقد كتب كتابه القيّم: المعقول واللامعقول في الأديان، فلسفة الدين بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، وهي الدراسة التي تنقد البناء الفلسفي الغربي من داخله من خلال الاستناد إلى النصوص الواضحة لعلمين من أعلام الفلسفة الغربية، وقد أقام دراسته على أساس من التحليل المقارن المتعمق للأديان في تقاطعها مع الميتافيزيقا بحثاً عن فلسفة عقلية للدين، بهدف التأكيد على أنَّ المادة وحدها غير كافية في تفسير الوجود. ففي الوقت الذي يشعر فيه الإنسان بأنَّ المادة غير كافية لتفسير الوجود - عند الخشت - هو الوقت الذي يكون فيه على أعتاب الإيمان، إذ لم يكن الخشت يكتفي - في سبيل سعيه المعرفي - بالمتناهي، وإنَّما كان يسعى نحو اللامتناهي متجاوزاً تماماً التفسير المادية للكون، محاولاً التماس مجال معرفة، يقدّم تفسيراً



له عن الله والعالم والإنسان، ومن الصحيح أنَّه وجد هذا المجال المعرفي في الدين والميتافيزيقا، وهذا يفسر لنا لماذا كانت أغلب مقارناته - إن لم تكن كلها - تتجه إلى صنع علاقة قوية بين الدين والميتافيزيقا، وتوجيه النقد اللاذع لكلّ من يحاول الفصل بينهما من أعلام الفلسفة، خاصة الغربية.

كذلك دراسته عن هيوم وكانط في كتابه «العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفتي كانط و هيوم»، كانت تعطي قراءة نقدية جديدة للفكر الكانطي والفكر الهيومي، و هي قراءة تأويلية جديدة لا تقرأ كانط بكانط و هيوم بهيوم، وإنّما تقرأ كانط بهيوم و هيوم بكانط، وحقاً ما قاله الدكتور حسن حنفي عن هذه الدراسة؛ إذ وجدها تتضمن رأياً معلناً بجرأة ووضوح، هيوم قابع داخل كانط، وكانط قابع داخل هيوم، والمسافة بينهما عند الخشت ليس كما هو شائع كبيرة إلى حد التناقض، بل هي عنده قريبة إلى حد التكامل، إن لم يكن التماثل، كانط عقلي و هيوم حسي، بل لقد رأى الدكتور حسن حنفي ما هو أكثر من هذا، إذ رأى كأنَّ روح الفارابي تعود من جديد - في كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين: أفلاطون وأرسطو - في محمد عثمان الخشت في الجمع بين الحكيمين: أفلاطون وأرسطو - في محمد عثمان الخشت في الجمع بين العكيمين الأخوة الأعداء في عصرنا الراهن (43)

ومن ثمَّ فقد انتهى من هذه الدراسة إلى أنَّ الاعتقاد بأنَّ علاقة هيوم بكانط هي علاقة سائل بمجيب اعتقاد خاطئ؛ لأنَّه ينبني على أساس أنَّ فلسفة هيوم فلسفة سؤال، وفلسفة كانط فلسفة إجابة، وإنَّما الصحيح لديه أنَّ فلسفة هيوم هي فلسفة سؤال وجواب معاً، وأنَّ كانط لم يتجاوز هيوم؛ لأنَّ فلسفته لم تكن إجابة على إشكال هيوم، وإنَّما كانت عند الخشت تعميقاً ترنسندنتالياً، ليس فقط للمشاكل والأسئلة التي أثار ها هيوم، وإنَّما أيضاً لنتائجه وحدسه الفلسفي. ومن ثمَّ فقد انتهى أيضاً إلى أنَّ كانط في فلسفته المعرفية والميتافيزيقية ومعظم المبادئ التي استند إليها في تحليلاته، وأغلب المشاكل الفلسفية التي أثار ها إنَّما هي نتائج ومبادئ ومشكلات ديفيد هيوم، ولكن مع شيء جديد من التعمق المبدع والتحليل العبقري على الطريقة الألمانية. (44)

إنَّ هذه الدراسة تحمل رؤية جديدة لتاريخ الفلسفة الغربية تتجاوز الصراع التقليدي منذ بداية العصور الحديثة بين العقلانية والحسية، والمثالية والواقعية، والصورية والمادية. (45)

غير أنَّ الخشت وهو في سبيل نقد الفلسفة الغربية لم يقال مطلقاً من أهمية جهود السابقين ممَّن قامت در استهم على العرض والتحليل، بل على العكس من ذلك كان يؤمن بأنَّها كانت ضرورية ومهمة في الفترة السابقة من نهضتنا الفكرية المعاصرة، حيث كانت الحاجة ـ وما تزال ـ ملحَّة للتعرف على هؤلاء الفلاسفة على ما هم عليه دون تأويل أو تفسير، غير أنَّه كان يرى أيضاً أنَّه آن الأوان لكى يكون هناك لون من

<sup>43</sup> انظر العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط، بيروت، طدار التنوير 2005م، ص 3

<sup>44</sup> انظر العقل وما بعد الطبيعة، ص 242

<sup>45</sup> د. حسن حنفي، تقديم كتاب العقل وما بعد الطبيعة، ص 4



الدر اسات التي لا تكتفي بالوقوف على العرض والتقديم، بل تحاول تقديم قراءات متعددة ومتنوعة لهؤلاء الفلاسفة.

ومن مؤلفاته التي تصبُّ في اتجاه نقد الفلسفة الغربية كتاب فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز. فإذا كان الخشت يرى أنَّ المسيحية قد واجهت دوماً تحديات كبرى ـ وقد كانت موجة النقد العقلانية التي تعرضت لها في القرن السابع عشر واحدة من تلك التحديات الكبرى التي قابلتها في تاريخها الطويل ـ فإنَّها لا تقلُّ في خطورتها وقدرتها على التهديد في الوجود عن موجات العنف التي تعرضت لها في بداياتها، بل كان يرى أنَّ المسيحية واجهت دوماً في كلّ تحدِّ من هذه التحديات من يدافع عنها، ويأخذ بيدها كي تستمر في الوجود، وكان ليبنتز من أولئك النفر الذين عملوا بجدية للدفاع عن المسيحية بما يجعلها قادرة على مواجهة موجة النقد العقلانية التي كانت علامة فارقة من علامات عصر العقل، عصر القرن السابع عشر الميلادي. (66)

ونستطيع أن نجد بوضوح نقد الخشت للفلسفة الغربية في دراساته العديدة، ومنها: فلسفة الدين والميتافيزيقا عند هيوم، وفلسفة العقائد المسيحية، وأقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، والفلسفة الحديثة، وغيرها من الدراسات.

## رابعاً: التوظيف العقلي للدين (فلسفة الدين)

من الأسس المهمّة التي ارتآها الخشت ابناء اتجاهه الفكري التوظيف العقلي للدين، وهذا ما حرص عليه في نقده للعقلانية النقدية عند كانط والعقلانية المنحازة عند هيجل، فقد حرص الخشت على عدم الاكتفاء بالتركيز على بناء فلسفة الدين واكتمالها في العقلانية النقدية عند كانط في كتابه: الدين في حدود العقل فقط، كما لم يحرص على عدم الاكتفاء بالتركيز على بناء فلسفة الدين واكتمالها في العقلانية المنحازة عند هيجل على كتابه: محاضرات في فلسفة الدين، بل عمل على تتبع مراحل التفكير الديني عند كانط وهيجل، في كلّ فترة من فترات تشكلهما الفلسفي، فترة الشباب، وفترة النضج المذهبي، وفترة اكتمال بنية فلسفة الدين، ومن ثمّ فقد كانت جهود الخشت تنصب على محاولة الكشف عن دور الدين في تشكيل المذهب الفلسفي، ودور الفلسفة في تكوين التصور الديني عند كل منهما، فقد كانت جهوده في قراءة كانط لا تفرق بين كتب كانط من حيث ما هو ديني، وما هو فلسفي، ممّا يمكننا من القول إنّ الرعاية والاهتمام اللذين أو لاهما لكتب كانط قبل النقدية من منظور الفكر الديني كانا كبيرين، ومن ثمّ فإنّ در استه للأعمال الكانطية قبل النقدية تُعدّ عملاً جريناً يتسم بالمجازفة، ولكنّها مجازفة محسوبة نتائجها بدقة، ولم يتخذ الخشت ذلك الاتجاه، إلا لأنّه وجد أنّ جريناً يتسم بالمجازفة، ولكنّها مجازفة محسوبة نتائجها بدقة، ولم يتخذ الخشت ذلك الاتجاه، إلا لأنّه وجد أنّ هذه الأعمال لم تلق الاقتمام الكافي في الدر اسات العربية والأجنبية. (47)

<sup>46</sup> فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، ص 7

<sup>47</sup> انظر الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان، ص 11



وإذا كان الخشت قد قصد إلى توظيف عقلي لفلسفة الدين عند كانط و هيوم، فإنَّ مقصده لم يكن مبنياً على عرض الآراء والأفكار هنا وهناك، وإنَّما سعى بكل جديَّة والتزام لتقديم تأويل لها في ضوء المقصد العام للمذهب الفلسفي. وهذا يفسّر لنا لماذا ركز جهوده على سائر أعمال كانط النقدية و غير النقدية، وأولاها الأهميَّة نفسها التي أولاها لكتاب الدين في حدود العقل فقط في فهم الفكر الديني عند كانط، كمرحلة على معالم التوظيف العقلي لفلسفة الدين، والخشت بهذا قد ولج طريقاً غير مألوفة ومخالفة لمن درس فلسفة الدين عند كانط؛ لاعتمادهم على كتابه سالف الذكر وتركيزهم عليه. أمَّا هيجل فقد كان الخشت يرى أنَّ فلسفة الدين عنده لم تحظ بدراسة عربية حتى الآن، ناقداً الدراسات الأجنبية التي دارت حول فلسفة الدين عنده لاعتبارات منهجية؛ إذ إنَّ هذه الدراسات على الرغم من كثرتها فقد اكتفت بالتعويل على طبعة 1831م لكتاب محاضرات في فلسفة الدين، بينما عوَّل الخشت بالدرجة الأولى على محاضرات 1824م؛ باعتبارها في نظره أكثر محاضرات اكتاب المخطوطة الأوليَّة التي كتبها هيجل، وتكتسب محاضرات 1827م أهميتها عند الخشت ليس فقط من منطلق المضمون الثري والأفكار الحيوية، وإنَّما كذلك من التقسيم البنيوي الأكثر اكتمالاً وتفصيلاً من المخطوطة ومحاضرات الأعوام الأخرى التالية.

وفي كتاب العقائد الكبرى قدّم لنا الخشت تصوراً عقلياً للدين من حيث هو دين، فلم يرضَ بالتيار الديني المتطرف، فضلاً عن عدمه رضاه بالطبع عن التيار العلماني الإلحادي المتطرف، وقد كان التوظيف العقلي للدين عند الخشت يقوم على أساس افتراض تيار ثالث، وهو العقلانية الروحية، فالعقلانية الروحية عنده حلّ ينظر إلى العالم نظرة علمية وفق منطق السببية، وفي الوقت ذاته يعي الإنسان أنَّ العالم الحالي غير كافٍ بذاته، ومن ثمَّ فلن يكون له معنى دون أن يبحث الإنسان عن نقطة ارتكاز قصوى تقدّم له المعنى الذي يحياه، وما هذه النقطة الارتكازية القصوى سوى الله تعالى، فدعوة الخشت هنا تقوم على أنَّ الله تعالى وضع قوانينه في الطبيعة، كما جعل لكل شيء سبباً، ومن ثمَّ فإنَّ منهجية التعامل مع الطبيعة والعالم والمجتمع ينبغي أن تكون منهجية علمية سببية، تنأى بنفسها عن الخرافة والأسطورة والحلول الوهمية. (48)

غير أنَّ هذا الحل لا يمكن الوصول إليه دون دراسة متعمقة للأديان بحثاً عن فلسفة عقلية للدين، بغية البحث عن الحقيقي والدائم على أساس موضوعي غير منحاز، حيث إنَّه من المؤكد عنده أنَّ كلَّ دين قد وصل إلى جزء من الحقيقة، ومن ثم آلى على نفسه ـ موجهاً أيضاً لجمهور القراء ـ محاولة اكتشاف هذا الجزء وسط ركام التحولات التاريخية والأوهام الخرافية، بحثاً عن الدين المطلق الذي جمع بين طياته كلَّ التصورات الجزئية للحقيقة في تصور أشمل، وهو الدين الإسلامي. (49)

<sup>48</sup> انظر العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء دمشق، طدار الكتاب العربي، 2010م، ص ص 5، 6

<sup>49</sup> انظر السابق، ص 6



لقد أعاد الخشت التفكير العقلاني الحر في الدين من حيث هو دين، كما قام بتحليل نقدي لماهية الدين وطبيعة العلاقة بين الدين والفلسفة، وبين العقل والنقل، ومعرفة موقف الأديان العالمية من الألوهية، والوحي والنبوات والمعجزات، وماهية العبادات ووظائفها، ومشكلة الشر، والحياة الآخرة، ومنطق تطور الأديان، وفحص الأديان في ضوء العقل وحده، من خلال تحليل ومقارنة العقائد الكبرى في العالم.

وللدكتور الخشت العديد من الدراسات في مقارنة الأديان، وهي كتب أساسية في مجالها، ذات إفادة جمّة للمتخصصين والمثقفين والباحثين عن المعرفة والإيمان الحق القائم على اقتناعات عقلية منطقية، ومن هذه الكتب:

- العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء
  - تطور الأديان قصة البحث عن الإله.
    - الفيدية، البر اهمانية، الهندوسية.
- الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان.

لقد اتجه في هذه المقارنات إلى الكشف عن مفهوم الأديان وميادين دراستها، علاقة الأديان بالفلسفة والميتافيزيقا والدين، منبع الأديان وتطورها، الأديان الطبيعية، الديانات التشبيهية، الأديان المتعالية، الإيمان والإلحاد، تصورات الفلاسفة للألوهية، الروح بين دوجما الأديان وحيرة الفلاسفة، الشيطان ومشكلة الشر في العالم، الوحي والنبوة في الأديان الطبيعية والتشبيهية، الوحي والنبوة في الأديان المتعالية، المعجزات بين الإعجاز الحسي وإعجاز البيان والبرهان، فلسفة العبادات الماهية والوظيفة. ثم تحدث تفصيلاً عن الديانة الفيدية من حيث ملامحها والكتب المقدَّسة فيها، ومجمع آلهة الفيدا، وعن الديانة البراهمانية من حيث ملامحها والكتب المقدَّسة من حيث أركانها وكتبها المقدَّسة، ومجمع آلهة الهندوسية، وبعض الفرق والمذاهب الهندوسية الأخرى.

وهي الدراسات التي حاول الخشت من خلالها تقديم حلّ شافٍ عن ماهية الدين من حيث هو دين، وهي الإشكالية التي حاول الإجابة عنها من خلال العديد من المؤلفات التي تتناول الأديان دون تمييز جغرافي أو تاريخي أو موضوعي، وفي سبيل ذلك اتبع منهجاً علمياً صرفاً صارماً، لا يقتفي معالم المنهج المقارن بمعناه الضيق التقليدي القائم على أساس علاقتي التشابه والاختلاف فقط، وإنّما المنهج المقارن الذي يبحث - فضلاً عن هذا - عن التلاقح والأثر والتأثر والتوالد والتطور والانتكاس والامتزاج والتضمن والهيمنة والنسخ والديالكتيك والتمييز بين المتغيرات والثوابت في الأديان السلبي منها والإيجابي بين العقلانية والأسطورة وبين الوحي والواقع وبين الوهم والحقيقة وبين المنطقي والخرافي، فضلاً عن توظيف الخشت للمنهج النقدي



التاريخي واستحضار نتائجه ومنجزاته، وفي هذا الإطار استدعى كثيراً من آراء الفلاسفة في كل العصور ـ خاصة الحديثة ـ حول الدين (50)

## خامساً: المساهمة في بناء علمي منهجي

وتلك صفة جو هرية تظهر لنا من مؤلفات الدكتور الخشت، أو على الأدق من ضمن ثلاثة مؤلفات تبغي الارتقاء بالبحث العلمي: «مناهج البحث». وهو المؤلف الذي أراد به الخشت تقديم المناهج العلمية الحديثة في البحث (٢٥١)، بعيداً عن الحديث عن المنطق القديم الذي ابتكره أرسطو الذي كان ملائماً لتلك الفترة التاريخية التي عاش فيها منذ بدء ظهوره، بل قبل ظهوره على يد أرسطو إلى مرحلته التي وصل إليها في عصره، ومن خلال هذه الرحلة التاريخية، ظهرت مواطن الضعف في المنطق القديم، فهو عقيم وشكلي ولا يؤدي إلى زيادة معارفنا؛ لأنّه مجرد تحصيل حاصل، وابتعد - في وضوح - عن تتبع المراحل المنطقية التي اجتازها المنطق حتى وصل إلى مرحلته النهائية، فلم يعرض لجهود علماء ومفكري العصور الوسطى، بينما رحّب بقدوم منهج علمي جديد يأخذ البشرية إلى آفاق من التقدم العلمي والحضاري، ومناهج البحث التي عرض لها الخشت هي الطرق التي يستطيع من خلالها الباحث العلمي الوصول ببحثه وفكره إلى مرحلة الجودة.

والحق أنَّ الخشت دلل على تلك المنطقية الفائقة من خلال الإلمام العام بموضوع مناهج البحث، وقد كان يهدف من وراء هذه الدراسة المتعلقة بمناهج البحث إلى التأكيد على الأخذ بالخطوات العلمية في قضايا حياتنا، وأهمها القضايا العلمية، ويمثل هذا الكتاب بجوار كتابين آخرين له، هما: كيف تكتب بحثاً علمياً (52)، وفن كتابة البحوث العلمية وإعداد الرسائل الجامعية (53) محاولة منه في إحداث حالة من الرواج العلمي في الوطن العربي من خلال عرض الأسس والخطوات العلمية لكتابة أي بحث علمي أو رسالة جامعية؛ لأنّه يجعل الباحث وجهاً لوجه أمام النصوص لينطلق منها بفهم إلى آفاق من المنهجية العلمية، والحق أنّ هذه الكتب موجهة في النهاية إلى الباحثين الذين يريدون التماس طريق البحث العلمي.

#### سادساً: بناء الدولة الحديثة:

للدولة الحديثة عند الخشت ثلاثة روافد رئيسة:

الأول: البناء الديمقراطي الراسخ.

<sup>50</sup> انظر الفيدية البراهمانية الهندوسيبة، طمكتبة لبن سينا، القاهرة، 1996م، ص 6

<sup>51</sup> مناهج البحث، طدار الأمير، بيروت، 2010، انظر المقدمة.

<sup>052</sup> طنهضة مصر، القاهرة، 2007

<sup>53</sup>ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990



الثاني: المجتمع المدنى الحقيقي.

الثالث: المواطنة.

#### أ ـ البناء الديمقراطي الراسخ

ظهرت ديمقر اطية الخشت في أسمى معانيها عند حديثه عن المجتمع المدنى، وما يجب أن يشكله من نواة أساسية في بناء أي نظام ديمقر اطي، تلك الديمقر اطية التي تنادي بالشوري في الحكم، والثورة على النظام الاستبدادي الفردي، الذي ثبتت أضراره الكثيرة، وينادي بضرورة إفساح المجال للشعب في صنع مستقبله وحياته السياسية، هادفاً بذلك إلى توثيق أو اصر التعاون بين البلاد سياسياً و اقتصادياً و ثقافياً؛ بل في المجالات المختلفة، فقد كان المجتمع المدنى عند الدكتور الخشت يمثل ثورة على النظام الطبقي في البلاد العربية، حيث تقسيمها إلى حكام وأعوانهم وإلى طبقات الشعب الكادحين الذين أذلهم الجهل والفقر والجبن من سطوة الحكام المستبدين، لقد أر ادها الدكتور الخشت مساواة، كما حثُّ عليها الإسلام، مساواة لا فرق فيها بين حاكم و محكوم، رئيس و مرؤوس. و ربما يفسر إنا هذا سبب هجومه على الرأسمالية الآنية في مصر والوطن العربي، مؤكداً على أنّنا بحاجة إلى «رأسمالية وطنية جديدة»، بحاجة إلى طلعت حرب جديد، لكن هذه المرَّة لا نحتاج إلى طلعت حرب كز عيم اقتصادي فرد، بل إلى مئات من نموذجه ومن معدنه: يكسبون ويكسب الجميع، لا تلك النماذج الرأسمالية الأنانية التي تريد أن تكسب ويخسر الجميع، تريد أن تغتني وتغتنى ويخسر الوطن (54) وتنتهج هذه الرأسمالية المتوحشة طريق أن تكسب هي ويخسر الآخرون؛ فهي لا يهمها إلا المكسب، ولا يهمها الوطن ولا الناس، وهي تتصور أنَّ السوق أشبه بميدان حرب بينها وبين الجميع، وهي لا همَّ لها إلا اصطياد الطرف الآخر وتحقيق الأرباح. (55) ومن ثمَّ فإنَّ الأزمة في بلادنا أكبر من أن تكون مجرد أزمة مالية، فهي تتسع لتشمل النواحي البشرية، ولا يقصد الخشت طبعاً من الناحية الكمية، فعدد البشر كبير، لكنَّ كثيراً منهم بحاجة إلى إعادة تأهيل تعليمي واجتماعي. نعم دون مبالغة ودون مزايدة و دون اللجوء لأسلوب دغدغة مشاعر الجماهير لأسباب انتخابية (66)

وقد فرَّق الخشت بين الديمقر اطية وبين تطبيقاتها في العالم المعاصر، فقد كان يرى في العالم المعاصر الذي يرفع شعار الديمقر اطية أنَّه يشتمل على جوانب كثيرة غير ديمقر اطية؛ ومن ثمَّ فقد أشهر سيف نقده تجاه هذه الخروقات السياسية، فكان مجملها: الدعاية المموّلة من جماعات المصالح التي تملك الأموال

http://www.elwatannews.com/news/details/511974

55 الخشت، الرأسمالية الوطنية والمصالح المستنيرة، بوابة الوطن 6/7/2014م.

http://www.elwatannews.com/news/details/515790

56 التبرعات وحدها لا تكفي، أين رأس المال الاجتماعي؟ بوابة الوطن 3/8/2014م.

http://www.elwatannews.com/news/details/531694

<sup>54</sup> الخشت، الفقر والرأسمالية المتوحشة، هذا هو الحل، بوابة الوطن، 29/6/2014م.



والإعلام المنحاز غير المحايد، الذي يضلل الجماهير أثناء فترة الانتخابات. وتملك مجموعات الضغط القوية حتى وإن كانت قليلة العدد تحقيق رغباتها إذا كانت متغلغلة في النظام العام للدولة. وفي الولايات المتحدة الكلمة النهائية ليس للأصوات الناخبة، وإنّما «للمجمع الانتخابي، فالمجمع الانتخابي لكل ولاية باستطاعته أن يرفض الشخص الذي انتخبه الشعب. وأعضاء المجمع يعينون للقيام بهذه المهمة ولهم الحق أن يرفضوا الشخص الذي انتخبه الشعب إذا لم يكن «مؤهلاً» بحسب تقييم الكليّات الانتخابية في الولايات المتحدة. والتعيين يتم تقاسمه (بالأساس) بين أفراد الأحزاب السياسية المسيطرة على الساحة السياسية. وفي بريطانيا تضمن الأحزاب القوية عدم وصول أي أشخاص لا ترغب فيهم إلى منصب رئيس الوزراء. ويفرض قانون الانتخابات الرئاسية في فرنسا على الذين يرشحون أنفسهم الحصول على تزكية عدد غير قليل من الشخصيات الفرنسية البارزة في المجتمع قبل أن يسمح لهم الدخول في الانتخابات. فالانتخابات في الدول الغربية أو في غير ها ليست ديمقر اطية بشكل كامل. (57)

أضف إلى هذا أنّه انتقد أعضاء المجالس البرلمانية المنتخبة في معظم دول العالم، الذين لا يهتمون غالباً إلا بمصالح دوائر هم الانتخابية الخاصة، ولا يركزون إلا على أولوياتهم الخاصة، وأولويات الجهات التي موّلت حملاتهم الانتخابية. كما انتقد ما يذهب إليه كثير من النظم الديمقر اطية التي تراعي فيها الأحزاب المصالح الفردية لأعضاء الحزب على حساب الأحزاب الأخرى، كما أنّها لا تراعي إلا المصالح الحزبية، وتضعها في المقام الأول على حساب المصلحة العامة. (58)

ولم تسلم الإدارات الحكومية في معظم دول العالم والأحزاب الفاشية أو ما يناظرها والمؤسسات الكبرى من نقده، كونها ذات طابع استبدادي مطلق السلطة وبيروقراطية، ورغبة صاحب أو أصحاب السلطة فيها هي أساس الشرعية. ولذا فهي ـ عنده ـ تسلطية، فضلاً عن كونها تضيق الخناق على المجتمع المدني ومنظماته، وتبذل كلَّ جهودها للانفراد بمناطق التأثير والنفوذ، وتستحوذ على مصادر الثروة، ولا تركز جهودها على تحقيق المصالح العامة إلا بشكل مظهري دعائي وبمقدار ضئيل لذرّ الرماد في العيون لزوم المظهرية الإعلامية وتضليل الجماهير، وتعمل جاهدة على تحقيق مصالح النخبة من كبار الساسة والموظفين وأصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال وأصحاب النفوذ. (69)

<sup>57</sup> الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 10/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/251256

<sup>58</sup> الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 10/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/251256

<sup>59</sup> الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 10/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/251256



ويؤكد الخشت على أنّه لا تظهر هذه الأمور غير الديمقر اطية في الدول الديمقر اطية على مستوى السياسة الداخلية لكلّ دولة، بل تظهر أيضاً وبشكل أكبر وأكثر حدَّة في السياسات الخارجية التي تحكم العلاقات بين دول الغرب ودول الشرق الأوسط، خاصة العربية والإسلامية، وباستثناء إسرائيل المدللة، كما تظهر في العلاقات بين دول الشمال والجنوب والدول الغنية والفقيرة والقوية والضعيفة. ثم إنَّ معول الديمقر اطية الذي يهدم بنيانها في العالم يتلخص في أنَّ المنظمات والمؤسسات الدولية تحت سيطرة الدول القوية التي أنشأتها، وتتظاهر بالديمقر اطية، ولا تمارسها إلا بالقدر الذي يحقق مصالح الدول الكبرى؛ واستخدام حق الفيتو من الأمثلة على ذلك. ومن هنا فمن الواضح أنَّ السياسات التي تنتهجها الدول الديمقر اطية الكبرى في العلاقات الدولية ليست ديمقر اطية، فالدول الديمقر اطية الكبرى نفسها غير ديمقر اطية في سياستها الخارجية (60).

وهو منطق كان يراه الخشت غير متماسك؛ وقد أثبت فشله؛ لأنّه ضدّ مصالح الناس، وتأكيد لمصالح النخبة، وضدّ قانون الارتقاء الطبيعي الذي يعمل على الفرز والتمحيص ويجعل البقاء للأصلح. وإنّما كان المنطق المتماسك عنده أنّ من ينحاز إلى مصالح الناس لا بدّ أن يفتح المجال للديمقر اطية، ويعطي إرادة الشعوب المساحة اللائقة بها، وفي ظني أنّه لا يمكن أن يوجد نظام سياسي يعبّر عن مصالح الشعوب تعبيراً حقيقياً إلا بتفعيل الديمقر اطية غير المبتورة. إنّ علاج مشكلات الديمقر اطية عنده هو المزيد من الديمقر اطية، بتفعيل وثائق حقوق الإنسان، وتفعيل الدساتير المكتوبة، وحق الانتخاب الفعلي للجميع، والاقتراع السري، والدوائر الانتخابية المتكافئة، وتناوب المناصب، وتداول السلطة العليا، و عدم التدخل في إرادة الجماهير (61)

لقد أراد الخشت دستوراً يتحوَّل المصري فيه من موجود من أجل الحاكم إلى موجود من أجل الوطن، ويتحول «الوطن» فيه من وسيلة إلى غاية. ويتحول الحاكم فيه من غاية إلى وسيلة، من صانع للأوامر والحاكم بأمره أو بأمر الله، إلى الحاكم بأمر الشعب، والشعب هو مصدر السلطة يمنحها ويمنعها؛ والإرادة الكليَّة للشعب هي التي تأمر وتفوض؛ إذ بهذا وحده ينقلب منطق العبد والسيّد في كلّ الدساتير السابقة، ويتحوّل الحاكم المطلق الدائم المهيمن إلى حاكم نسبي يأتي ويذهب، ويُعيَّن ويُخلَع، ويتحوّل المواطن إلى مطلق...، إن حكم بصوته في الصناديق أو بأقدامه في الميادين فقد صار حكمه واجب النفاذ. (62)

36

<sup>60</sup> الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 10/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/251256

<sup>61</sup> الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 10/8/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/251256

<sup>62</sup> الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتورا جديداً 2 / 2 بوابة الوطن، 7/9/2013م.

http://www.elwatannews.com/news/details/307638



وممًا كان يؤلم الخشت أنّ الحاكم عندنا في مصر فهم خطأ أنّ انتخابه رئيساً معناه أنّه أصبح الحاكم المطلق، وعلى الجميع أن يطيعوه؛ أليس هو رئيساً منتخباً؟ فالرئيس المنتخب عنده هو وحده صاحب السيادة والشرعية، يحكم ويشرع، ويعطي ويمنع، ويحرك الجيوش، ويتسلط على القضاء، وهذه ليست سمة تخصُّ رئيس الجمهورية المنتخب فقط ـ في رأي الخشت ـ بل هي سمة الكثير من المنتخبين في أحزاب بلدنا المحروس، فانتخابهم يعني عندهم شرعية التسلط والتحكم في العباد، فالوطن أو الحزب مثل «السمكة» يمسكها من رأسها ثم ينفضها أعلى وأسفل وشمالاً ويميناً ثم يضربها أرضاً ما شاء، أليس هو الرئيس الشرعي»؟(63)

إنَّ الحل البسيط لمواجهة الفوضى عند الخشت هو الديمقر اطية، يقول: «الفوضى حلها تطبيق القانون بحسم و عدالة ناجزة دون تراخ ودون ارتعاش. فمأساتنا أنَّنا نتأرجح دوماً بين الاستبداد والفوضى...، مرَّة نعيش تحت القهر، ومرَّة نعيش تحت الفوضى، ولا نعرف المنطقة الوسط (الحرية المسؤولة الملتزمة بالقانون). ولذلك فليس بديل الفوضى هو العودة للاستبداد ولا الدولة البوليسية، بل هو الالتزام بالقانون من الناس، والالتزام بتطبيق القانون على الجميع من الحكومة»(64). فمأساتنا في مصر ـ كما يراها الخشت ـ تارة الاستغلال السَّيئ للحريات العامة والخاصة، وتارة أخرى التعدي عليها، وما يزال العرض مستمراً: مرَّة فوضى، ومرَّة استبداد.(65)

#### ب ـ المجتمع المدني الحقيقي

خرج الدكتور الخشت بثوب جديد، لم نكن نألفه عليه من قبل، هذا الثوب هو ثوب المدني المبتكر، فخرج علينا بالكشف عن نوع من الاجتماع المدني، الذي يتخذ من العقل طريقاً له، فكتب: كتاب المجتمع المدني، وكتاب المجتمع المدني والدولة، وكتاب المجتمع المدني عند هيجل. غير أنَّ الدكتور الخشت رغبة في ارتداء هذا الثوب الجديد لم يتنازل عن أولوياته الفكرية، وإنَّما حمل مشروعه معه أينما حلَّ أو ذهب، حمل عقله ومنهجه، لقد لفت نظر الباحثين إلى مدنية ذات بناء عقلاني منهجي بعد ما احتلت في نظر الناس مكانة مغلوطة رسختها فيهم أفعال من يدَّعون انتماءهم إلى هذه المدنية في وطننا، حتى أظهرتهم هذه الأفعال في صورة الذي يكره العقل ويتسم بالتناقض، ويأتي بأقوال مر فوضة لا تمتُ لعادات مجتمعنا وثقافته بشيء.

http://:www.elwatannews.com/news/details353192/

<sup>63</sup> الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتوراً جديداً 2 / 2 بوابة الوطن، 7/9/2013م.

http://:www.elwatannews.com/news/details307638/

<sup>64</sup> الخشت، الإسلام الحر ومعضلة الفوضى في مصر، بوابة الوطن، 2/11/2013م.

http://:www.elwatannews.com/news/details349668/

<sup>65</sup> الخشت، الإسلام الحر وحرمة الحياة الخاصة، بوابة الوطن، 9/11/2013م.



كما لفت نظر هؤلاء إلى أنَّ السياسة الحقيقية هي تلك السياسة التي تعمل لصالح الوطن، لا من أجل انتماءات حزبية، أو رغبة في تطبيق أجندات خارجية لا تهتم بغير مصلحتها هي.

وجد الخشت في المجتمع المدني الحل الوحيد في عصر تمّت فيه تجربة معظم الحلول، وتمّ فيه إثبات فشلها، فالمجتمع المدني عنده يقدّم نفسه كحل لم يتمّ تجريبه بشكل شامل، وليس المقصود بالمجتمع المدني عند الخشت كما هو في الواقع المشاهد الآن - أي المجتمع الموجود بالفعل، بما فيه من سلبية وارتزاق وعدم شفافية في كثير من الأحيان - وإنّما المقصود المجتمع المدني كنظام ومنهج إيديولوجي لمجتمع مفتوح وتعاوني وحر.

وربما كان من أهم الدوافع التي أملت عليه الدخول في هذا المعترك السياسي القائم على مؤسسات المجتمع المدني ما يلي:

- إيمان الخشت غير المحدود بأنَّ العبء الأكبر يقع على المثقفين في زماننا في تطبيق أهداف المجتمع المدني والترويج له كنظام ومنهج لمجتمع عصري، وهذا العبء لن يستطيعوا القيام به إلا بتخليهم عن المناقشات العقيمة والأفكار غير القابلة للتنفيذ.

- التأكيد على أنَّ حلول مشاكلنا ليست في بطون الكتب و لا في الصالونات الثقافية، وإنَّما في العمل الفعَّال بين الناس.

- إيمانه بأنَّ الحديث عن خيار ات الماضي لا يجدي نفعاً، في حين ينبغي الحديث عن خيار ات المستقبل؛ لأنَّ الخيار ات الماضية أصبحت خارج التاريخ.

ومن ثمَّ كانت دعوته الجادة إلى المثقفين والمفكرين والسياسيين بشقٌ طريق جديدة يتجاوبون فيها مع روح العصر، ويجابهون بها بشكل عملي مشكلات المجتمع وأزماته ومتغيرات ما بعد سقوط الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة وأحداث سبتمبر، متجاوزين الاختيارات العتيقة التي ثبت فشلها جزئياً وكلياً. لقد أراد الخشت أفكاراً قابلة للتنفيذ على أرض الواقع عبر تأسيس طريق جديدة للتنمية الشاملة والمستدامة، لقد كانت هذه الخطوة عند الخشت ضرورية، لكنَّها غير كافية؛ إيماناً منه بأنَّ أحد أهم مشاكلنا أنَّنا لا نريد أن نعمل، لذلك نراه يتساءل مستنكراً: ما قيمة الأفكار الخلاقة مع أناس يرتعون في السلبية، ويدخل الإهمال في بنيتهم النفسية؟(66)

لقد هاله المرض النفسي الذي يصيب الشخصية العربية التي تنتظر الحلَّ من الأعلى أو من الخارج، بينما كان يؤمن إيماناً جازماً بفلسفة التاريخ التي تقول إنَّ الحل لا يأتي إلا من الأسفل أو من الداخل، أي من

<sup>66</sup> انظر المجتمع المدني، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط الأولى، 2004م، ص ص 5، 6



المجتمع المدني، وهو الحل الذي ارتآه لأمّة تترنح وسط عالم ليس من وجود حقيقي فيه إلا للأقوياء. وقد أملت عليه في ذلك دوافع عقدية ومنطقية في الوقت ذاته: أمّا العقدية فتأثره بقوله تعالى: «إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.» أمّا الدوافع المنطقية فإيمانه بأنّ التنمية الشاملة والمستدامة لن تتحقق إلا بتفعيل المجتمع المدني، وتفعيله لا يمكن أن يكتمل إلا بتعميق الديمقر اطية والشورى الملزمة، وتقديم وتنفيذ تصورات جديدة مركّبة تنشأ بحكم الظروف المجتمعية المتجددة، واتساع رقعة الفكر الحر، وانتشار المد الديمقر اطي. (67)

وإذا كان مفهوم المجتمع المدني ما يزال غامضاً أو غير معروف في كثير من الأحيان، وإذا كانت كتب الفلسفة السياسية ترتكز على مفهوم الدولة وتهمّش مفهوم المجتمع المدني فإنَّ جهود الخشت تأتي كمحاولة لجعل مفهوم المجتمع المدني مفهوماً مركزياً، بحيث ينقله من الهوامش إلى البؤرة ومن الظلام إلى النور، والانطلاق منه كنقطة بدء أولى. وما ذلك إلا لإيمانه العميق بأنَّ المجتمع المدني هو الأصل والأساس العقلي المتين لأيّ شرعية سياسية، وأنَّه المسؤول عن سلامة أو فساد الحياة السياسية.

لقد كان يؤمن إيماناً جازماً بأنَّ القيادة السياسية تعبير حقيقي عن حقيقة الشعوب، أو مرآة تعكس ما عليه الناس، فكان يرى أنَّه إذا كانت الديمقر اطية مزيفة وكان الناس سلبيين، وغير عابئين بما يحدث، وغير مشاركين في الحياة السياسية، فإنَّ ذلك في نظره يرجع غالباً إلى عدم سلامة وفعالية البنية التحتية في الحياة السياسية، أي المجتمع المدني، لقد أراد أن يبصر بأمر مهم مؤداه: أنَّ أحوال الناس وطريقة حياتهم وأخلاقهم وأساليبهم الاجتماعية يترتب عليها منطقياً أسلوب الحكم الذي يتلاءم معهم، فالمجتمع الصالح يضع نظام حكم صالح، والعكس بالعكس، والمجتمع الديمقر اطي عنده يتمخض عنه حكم ديمقر اطي، والمجتمع غير الديمقر اطي ينشأ عنه بالضرورة نظام غير ديمقر اطي، ومن ثمَّ كان الوضع الطبيعي الذي يجب البدء به هو الأمل المجتمع المدني باعتباره الأصل من الناحية الزمنية بحكم التطور التاريخي للنوع الإنساني، وهو الأصل من الناحية الزمنية بحكم التطور التاريخي للنوع الإنساني، وهو الأصل من الناحية المنطقية (88)

ومع أنَّ هذه القضية تبدو واضحة، فإنَّه ممَّا كان يألم له الخشت أنَّ أغلب البحوث في الفلسفة السياسية تتوجه إلى الدولة كمفهوم مركزي، بينما تهمَّش سائر المفاهيم الفلسفية السياسية، ومن أهمّ هذه المفاهيم المهمَّشة مفهوم المجتمع المدني، حتى مع وجود بعض البحوث التي كانت تناقش مفهوم المجتمع المدني فإنَّ هذه المناقشة كانت تنطلق في نظره من مفهوم الدولة؛ إذ كانت تسير من الدولة إلى المجتمع المدني معتبرة الدولة هي الأصل والمجتمع المدنى هو الفرع. في حين نفض الخشت عن نفسه كلَّ هذا النهج الخطأ، ومن

<sup>67</sup> انظر السابق، ص 6

<sup>68</sup> انظر السابق، ص ص 6، 7



ثمَّ كانت در استه وجهوده في بناء المجتمع المدني تنطلق من المجتمع المدني - لا الدولة - باعتباره الأساس والروح لأيَّة حياة سياسية. (69)

إنَّ المجتمع المدني عند الخشت لا يكتفي بعرض الأفكار السابقة للفلاسفة والمفكرين والسياسيين، وإنَّما يسعى لتقديم وجهة نظر حرَّة وناقدة للأفكار ذات الطابع الشمولي، وهي تلك الأفكار التي تنادي بدولة شمولية، وهي الدولة التي لا تسمح بحرية تبادل السلطة، ولا بوجود أيَّة مؤسسات مستقلة: كالقضاء والجامعات والنوادي والجامعات والجمعيات، وتنظر لأفكارها الإيديولوجية على أنَّها الوحيدة التي تملك الشرعية وتعبِّر عنها، ومن ثمَّ ليس هناك من تعدُّد ثقافي، ولا تنوع إيديولوجي، وتلغي الفرد لصالح الدولة.

وإذا كان المجتمع المدني عنده لا يكتفي بعرض أفكار الفلاسفة والسياسيين عن المجتمع المدني، فإنَّه يهدف إلى الآتى

أولاً: يسعى لتقديم وجهة نظر ناقدة للأفكار ذات الطابع الشمولي؛ بغية تدعيم الفكر الفردي الحر، وترسيخ قيم ومفاهيم الديمقر اطية، ودعم استقلالية المجتمع المدني كحلً لا يقبل الشك للإشكاليات العالقة بين السلطة والمجتمع والفرد.

ثانياً: يسعى إلى الكشف عن المغالطات التي تقع فيها الأنظمة الشمولية المتطرفة، والأنظمة الليبرالية الجذرية، باعتبار التطرف ـ أيًا كان مصدره جهة اليمين أم جهة الشمال ـ يدلُ على وجهة نظر أحادية الجانب، وعلى الانحياز لفئة اجتماعية دون أخرى.

الثالث: القضاء على مظاهر التطرف القائم على السعي نحو تأكيد الهيمنة المطلقة للدولة، كذلك القضاء على التطرف القائم على السعي نحو المناداة بتلاشي سلطة الدولة، باعتبار هذه المظاهر جميعها قد ثبت فشلها.

الرابع: التأكيد على أنَّ المجتمع المدني إذا كان لا يعمل دون رقيب؛ فلأنَّ ذلك نوع من التهور، ومن المغالطة كذلك فرض الهيمنة الشاملة عليه.

الخامس: تقديم الحل الأمثل في فك لغز العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني والقطاع الخاص، وهو الحلُّ الذي يقوم على الشراكة القائمة بدورها على التوازي والتكافؤ، وليست الشراكة القائمة على الهيمنة والابتلاع لطرف دون آخر.

<sup>69</sup> انظر المجتمع المدني، ص 7



هناك علاقة واضحة ووثيقة بين المجتمع المدني والديمقر اطية، فكلُّ من ينحاز إلى الناس عند الخشت لا بدَّ أن يفتح المجال للديمقر اطية، ويعطي المجتمع المدني المساحة والدور اللائقين به، ولا يمكن أن يوجد مجتمع مدني حقيقي عنده إلا بتفعيل الديمقر اطية، وإذا كانت الديمقر اطية هي الأسلوب الأمثل في إدارة المجتمع المدني، فإنَّها لا يمكن أن تحقق أغر اضها، بل لا يمكن أن تكون ديمقر اطية حقيقية دون أن تعمَّ سائر القطاعات من أسفل إلى أعلى، بداية من حقوق الفرد، مروراً بحرية الصحافة، واستقلال القضاء والمؤسسة التشريعية وصولاً إلى كافة مؤسسات الدولة، التي تتشكل وتعمل هي الأخرى وفق آليات ديمقر اطية صارمة، فالديمقر اطية عنده يجب أن تكون كاملة وليست مبتورة بمعناها الغربي التقليدي أو بمعناها الشرقي المزيف، لذلك كان عليه أن يكشف أزمة الديمقر اطية المعاصرة في العالم وفي الوطن العربي، ومن ثمَّ فقد كان حلُّ أزمات الديمقر اطية عنده لا يتمُّ إلا بمزيد من الديمقر اطية؛ إذ هي الآلية الملائمة للحكم وتداول السلطة، كما أزمات الديمقر اطية عنده ألله المدر ضامن للسلام الدولي. (70)

#### ج ـ المواطنة

وإذا كان الخشت قد بدأ فكره السياسي بالتمسك بالديمقر اطية كحلً ومنهح، وإذا كان قد أردف ذلك بحديثه عن المجتمع المدني في مؤلفاته: المجتمع المدني عند هيجل، المجتمع المدني والدولة والمجتمع المدني، فإنَّ رائعة الروائع التي أكمل بها مشروعه السياسي هي در استه عن المواطنة من خلال كتابه الأحدث «فلسفة المواطنة في عصر التنوير»، حيث صاغ تعريفه للمواطنة وسط بحر من الاختلافات العالمية والمحلية حول هذا المفهوم، بما يتضمنه من قضايا فرعية تندرج تحته، وقد تعامل مع المفهوم بشيء من الاتساع، فالمواطنة عنده مفهوم قد يضيق وقد يتسع، قد يضيق ليقتصر على نخبة، وقد يتسع ليشمل عدة نخب، وقد يزداد اتساعاً فيشمل كلَّ المنتمين إلى دولة ما أو أمَّة، وفي أحيان قليلة ربَّما يشمل مفهوم المواطنة كلَّ الجنس البشري في إطار دولي عالمي، قد يكون له شكل الدولة الواحدة، وقد يكون له شكل التكوين الفيدر الي الذي يجمع عدة دول في إطار حكومة عالمية أو عصبة أمم.(17)

ويُعدُّ مفهوم الخشت هنا دليلاً على ما يكتنفه هذا التعريف من إشكالية، وهي الإشكالية التي كان يدرك أنَّها نتيجة اختلاف التحليلات الفلسفية، وتعارض النظريات الاجتماعية، كما أنَّه نتيجة عدم انتهاء النظريات السياسية إلى رأي أخير يوضح ماهيته، ومن ثمَّ كانت محصلة هذا كله التباين الواضح الذي عليه الأنظمة السياسية عبر العالم، بل عبر أحزاب الدولة الواحدة في تحديد معالمه ومضمونه.

ومع هذا فإنَّه لم يقف عند مجرَّد التعريف الاصطلاحي لمفهوم المواطنة، بل تعامل معه ككائن حي له ماضٍ وحاضر ومستقبل، ينشأ وينمو ويتطور، ويتراجع ويتقدم، ويقوى ويضعف، ويتداخل ويتخارج مع

<sup>70</sup> انظر السابق، 85 وما بعدها.

<sup>71</sup> انظر فلسفة المواطنة في عصر التنوير، القاهرة، طدار الثقافة العربية، 2012م، ص 9



مفاهيم أخرى. وهو بذلك لا تزل قدمه في اقتطاع المفهوم من وضعيته التاريخية وجذوره، وما آلت إليه صير ورته في الوقت الراهن. وقد توقف كثيراً عند عصر التنوير، باعتباره العصر الذي حمل معالم الارتباط العضوي بين المواطنة والحداثة؛ إذ كلّ عناصر الحداثة الماثلة في أعمال طائفة كبيرة من فلاسفة وكتاب التنوير ترتبط عند الخشت ـ ارتباطاً نظراً مع مفهوم المواطنة عندهم؛ حيث يعكس هذا المفهوم أسمى ما قدَّمه هذا العصر .(72)

لقد كان الخشت معنيًّا في در استه بالآتي:

- معنى المواطنة.
- أبرز سماتها وأسسها
- ارتباط المواطنة بفكرة الحداثة.
- المواطنة تشكِّل الأساس الركين في بناء الديمقر اطية.

ونفهم ـ في التحليل الأخير ـ أنَّ النظام السياسي الصحيح يقوم عند الخشت على أسس ثلاثة:

- الديمقر اطية في الحكم.
  - المجتمع المدنى.
    - المواطنة

## سابعاً: كشف الاتجاهات الخارجة عقدياً وعقلياً

نقد الخشت العديد من التيارات والاتجاهات عبر مراحل حياته الفكرية التي ما تزال ملأى بالعطاء، وهو في سبيل نقده لهذه الاتجاهات وتلك التيارات كان يقوده عقله وإيمانه؛ إذ لم يكن ينقد الفكرة أو الرأي إلا تحت مظلة الأسس العقلية العقدية، التي كانت سلاحه الذي حمله معه أينما حلّ.

ويظهر هذا الأساس الفكري في العديد من كتبه الفكرية، منها على سبيل المثال:

- تطوُّر الأديان.

<sup>72</sup> انظر الخشت، فلسفة المواطنة، ص ص 10، 11



- المعقول واللامعقول في الأديان.
- العلم والدين بين رينان والأفغاني.
  - فلسفة العقائد المسبحبة
  - العقل وما بعد الطبيعة.

وغيرها من الموضوعات التي جعل الخشت أساسه الفكري فيها ـ بالإضافة إلى أسس فكرية أخرى ـ كشف بعض الآراء الخارجة عقلياً وعقدياً، سواء أكان هذا الخروج في المنهج أو في تناقض الأفكار، أو في نظرتها المغالية إلى تهميش الدين كما فعل هيجل، أو الإعلاء المغالي في قدره كما فعل ليبنتز.

ويكفي أن نذكر مثالاً على ذلك نقده لموقف هيجل من الدين، فقد هاله علاقة الموقف الإيديولوجي والسياسي الهيجلي بتهميشه للدين، وإخراجه له من سياق الأديان العالمية، وقد نقده في ذلك نقداً قوياً عقلانياً مقنعاً، مستدلاً على أنَّ الإسلام - لأسباب موضوعية صرفة - من أكثر الأديان تأثيراً في حركة التاريخ بما ذهب إليه مايكل هارت في كتابه: 'المائة: تقديم لأعظم الناس أثراً في التاريخ". غير أنَّ الخشت لم يكن ليقف عند حدود اعتراف بعض المفكرين الغربيين بدور الإسلام العظيم، كما يذهب إلى ذلك كثير من مفكرينا، وإنَّما كان يمتلك في جعبته العديد من الأدلة والبراهين التي تجعله في غنى عن آراء الآخرين واستدلالاتهم، وإنَّما كان يمتلك في جعبته العديد من الأدلة والبراهين التي تجعله في غنى عن آراء الآخرين واستدلالاتهم، وليس ربّ قوم بعينهم فقط، ومن أنَّ الخطاب القرآني موجَّه إلى العالم كافة، ومن حيث كون الإسلام يعترف بالتمايز والاختلاف بين الشعوب، ومع هذا فهو لا يعمل على إلغائه، بل يقرُّ به كنوع من الاختلاف المنتج بالتمايز والاختلاف بين الشعوب، ومع هذا فهو لا يعمل على إلغائه، بل يقرُّ به كنوع من الاختلاف المنتج الذي يؤدي إلى التلاقي والتقدم، مستدلاً على ذلك بآيات القرآن الكريم، كما أنَّ الإسلام لا يجاهد من أجل إلغاء الآخر بل يجاهد فقط المعتدين والقتلة والظالمين، ويحثُ المؤمنين به على التواصل مع الآخرين، إلى غيرها من الأسباب الموضوعية التي تؤكد عالمية الإسلام، مثل: الحريَّة والشوري والمساواة، التي تجاهلها هيجل أو جهلها. (73)

ومن الأمثلة الدالة على أنَّ الخشت كان من ضمن أسسه وأهدافه الفكرية كشف الاتجاهات الخارجة عقدياً وعقلياً موقفه من الأديان الوضعية والأديان السماوية غير التوحيدية في كتابه تطور الأديان، فقد نقد هذه الأديان لأسس عقلية عقدية معتبراً أنَّ العقل لا يقبل بفكرة تعدُّد الآلهة، أو بفكرة عدم وجود الإله، وفي حين نقد هذه الاتجاهات الدينية عقلياً، فقد نقدها عقدياً بالدين الإسلامي وعقيدته الغرَّاء، لقد نقد الأديان الوضعية بالدين الإسلامي أيضاً، وما ذلك إلا لأن الإسلام يحمل في داخله عوامل تطوُّره المبنية على أسس عقلية تهتمُّ بالعقل وتعرف دوره المنوط به.

<sup>73</sup> انظر المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م، ص 10



# ثامناً: الدعوة إلى أخلاق كونيَّة

يمكن القول دون تردد إنَّ الدكتور الخشت قد قرَّب الوشائج والعلاقات بين الدين والأخلاق، خاصَّة في تعويله على الدين النقي باعتباره الذي يقدّم الأمل في أنَّ الجهود المبذولة في إقامة ملكوت الأخلاق والعدالة والسعادة لن تضيع هدراً، وفي تعويله على علم الأخلاق باعتباره يساهم في تنقية الدين من التفسيرات المغلوطة التي يقدّمها له أهل المصالح، وباعتباره يساهم في إعادة التأكيد على الوظيفة الأخلاقية للدين، ومن ثمَّ كانت العبادة الحقة عنده تكمن في السلوك الأخلاقي النابع من أداء الواجب المنبثق من العبادة الحقة، وكأنَّه يقيم جسوراً من التواصل بين الأخلاق الدينية والأخلاق الكانطية، رابطاً في وضوح بين أداء الواجب والعبادة الحقة، فالعبادة الحقة عنده تعنى - في التحليل الأخير - العمل بالواجب.

لقد نجح أستاذنا فيما فشلت فيه فلسفات الحداثة من الوصول إلى حد أدنى مشترك للأخلاق؛ لأنّها لم تكن مشغولة بذلك، وإنّما اكتفت بمحاولة الوصول إلى الحدّ الأقصى الأخلاقي، فكانت عنده تعمل على بناء منظومتها الأخلاقية كمنظومة تصل إلى قمة الهرم الأخلاقي على أنقاض الفلسفات الأخرى، ولم تتمكن تلك الفلسفات من تقديم أخلاق يمكن أن ينفذها الناس في حياتهم؛ حيث ظلت محلقة في سماء البحث عن مبادئ أخلاقية قصوى تنوء بها الطبيعة البشرية، وتكرّس الخلاف بين الناس، وإن نزلت بعض هذه الفلسفات أرض الواقع فإنّها تهاوت في نسبية مفرطة، وسّعت من مجال الخلاف بين الأفراد والمجتمعات البشرية، ومن ثمّ ابتعدت عن الوصول إلى الحد الأدنى المشترك في الأخلاق.

وإذا كانت أخلاق الحد الأدنى عند كونج تقوم على مبدأين أساسيين، فقد أرجعهما الخشت إلى مبدأ واحد، فمبدأ «كلُّ إنسان يجب أن يعامل على نحو إنساني» متضمن عنده منطقياً في مبدأ «ما تتمناه من الآخرين افعله لهم»، ومن ثمَّ فأخلاق الحد الأدنى عند الخشت تقوم على مبدأ واحد هو: «عامل الناس كما تحبُّ أن يعاملوك»، وهذا المبدأ يقوم على قاعدة عدم التناقض، فالإرادة المتناقضة عنده هي التي تعطي لنفسها حقاً، بينما تمنعه عن الآخرين، وتسوّغ لنفسها فعلاً، بينما تحرّمه على الناس.

وهكذا أثبت الخشت في كتابه القيّم ـ رغم كلّ هذه التباينات بين الأديان، ورغم التعارضات بين فلسفات الأخلاق حول طبيعة الخير، ورغم كلّ تلك الاختلافات على كلّ جانب، وبين كلّ جانب وآخر ـ أثبت أنَّ ثمّة نواة أخلاقية تمثل حداً أدنى أخلاقياً مشتركاً بينها جميعاً، ولم تكن فكرته عن الحد الأدنى الأخلاقي إيديولوجية جديدة، كما أنَّها ليست تعاليم من قبيل البنية الفلسفية المذهبية الفوقية، ولا تعنى بفلسفة منفردة أو دين بعينه، كما أنَّها لا تنشد جعل الأخلاق المحددة للأديان المختلفة بمثابة أمر ثانوي أو نافلة، وإنَّما فكرته عن الحد الأدنى تقوم على قاعدة ذهبية واحدة تنبثق منها معايير أخلاقية أساسية تشمل الحق الأصيل في الحياة والمعيشة الكريمة والمعاملة العادلة من الأفراد ومن الدولة والاندماج الذهني والجسدي في المجتمع. إنَّ أخلاق الحد الأدنى عند الدكتور الخشت هي إجماع جو هري على قيم ملزمة ومعايير محددة وسلوكيات



أساسية يتمَّ إقرارها من قبل جميع الفلسفات على اختلاف إيديولوجياتها، وكلَّ الأديان على اختلاف عقائدها. بل لقد كانت الحاجة ماسَّة عند الخشت إلى فلسفة للفعل والعمل لا للكلمة والنظر، فلسفة للتقدم، ومن ثمَّ فلسفة للأخلاق، لكَّنها ليست أخلاق النظريات الفلسفية المجرَّدة، وإنَّما أخلاقيات قابلة للتنفيذ، أخلاقيات للتقدُّم. (٢٥)

#### الخاتمة:

وبعدُ، فلعل من أهم جهود الدكتور الخشت وثمار سعيه العلمي أن كوَّن لنا اتجاهاً من تلاميذه الذين يُعدُّون الآن من باحثي الفلسفة في مصر والعالم العربي والإسلامي، متأثرين به في منهج البحث، وحرصه على العلم، وروحه الثائرة على التمسُّك بالقديم لمجرد قدمه، فلئن كان الخشت امتداداً لمدارس فكرية متعدّدة تمثل شخصيات فكرية رائدة، فإنَّ فكره ومنهجه يمثلان مدرسة استطاعت أن تقدّم الكثير. والحق أنَّ هذه الاتجاه تخطَّى حدود وطننا العزيز إلى كثير من البلاد الإسلامية والعربية، ويكفي أن نلقي نظرة على طلاب الدراسات العليا الذين أشرف عليهم، أو أولئك الطلبة الوافدين من بلاد أخرى إلى كليَّة الأداب جامعة القاهرة، والذين نهلوا من معينه وشربوا من جهده الفلسفي. ويكفي أن نشير أيضاً إلى الاتجاه الذي أستسه في دراسة الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، ذلك الاتجاه الذي يصل هذه الفلسفة بالدين بحيث لا تنفك عنه البتَّة، وإلى الاتجاه الذي أسسه في كيفية الاعتزاز بالفكر الإسلامي. وفي أنَّه يمثل الندّ لفي مواجهة الفلسفة الغربية، وفي أنَّ العقلية العربية المسلمة لا تقلُّ بأيّ حال من الأحوال عن مثيلتها الأوروبيَّة.

وذلك من خلال انتقائه لعدد من القضايا الفكرية، وكأنّه يريد أن يبيّن لنا مراكز القوة في فكرنا لنستند عليها ونطوّر في أدائنا من خلالها، وكذلك مواطن الضعف لنعمل على تقويتها والنهوض بها. لقد قارن في صبر وأناة بين أعلام الفلسفة الحديثة والمعاصرة أنفسهم، كما قارن بين الفلسفتين: الفلسفة الإسلامية والغربية مستخرجاً أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بينهما، وكذلك فعل في بعض دراساته، نذكر منها بالخصوص: المشترك بين الأديان والفلسفة (75)، فلسفة العقائد المسيحية، الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني (76).

لقد كان الدكتور الخشت لا يضع غير العلم في اعتباره، وهو بصدد بحث جديد أو كتاب جديد؛ إذ كان هدفه إشباع رغبته في العلم، ولذا لم تكن كتاباته وأبحاثه موجّهة إلى طلاب الكليّة بهدف الدراسة، وإنّما كانت موجّهة في الأساس إلى نشر الفكر الفلسفي، والتأكيد على ارتباط الفلسفة بالحياة. والحق أنّ هذه هي جهود العالم الحق الذي لا تقف حدود فلسفته عند أرض الوطن فحسب، بل تتعداها إلى الأقطار الأخرى، والذي لا

<sup>74</sup> الخشت، الفلسفة الإسلامية المعاصرة بين الإجابة على الواقع والتفكير خارج التاريخ.

<sup>75</sup> المشترك بين الأديان والفلسفة، ط القاهرة، دار غريب، 2011م.

<sup>76</sup> الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني، طالقاهرة، دار قباء، 1998م.



يضنُّ بعمله وعلمه على أيِّ من بلاده وأمَّته ما دام قد طُلب منه ذلك. بل لقد كانت ـ وما زالت ـ مشاركات الدكتور الخشت في الأحاديث الثقافية والندوات المتخصصة والقنوات الفضائية إضافة حقيقية؛ حيث تناول فيها الموضوعات الفلسفية المعاصرة، كما تناول الفلسفة والمجتمع في مصر، والحريَّة والعقل والدعوات إلى التجديد والمعاصرة، فضلاً عن أحاديثه التي تُعبِّر عن موقف سياسي راسخ، واتجاه ديمقراطي حقيقي.



# المصادر والمراجع:

## أولاً: الكتب

- الخشت، فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، القاهرة، دار قباء، 1998م.
  - الخشت، الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني، ط القاهرة، دار قباء، 1998م.
- الخشت، الإسلام والوضعية والاستشراق في عصر الأيدولوجية، طدار نهضة مصر، القاهرة، 2007.
  - الخشت، العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط، بيروت، طدار التنوير 2005م.
    - الخشت، تطور الأديان، ط القاهرة، مكتبة الشروق، 2010م.
    - الخشت، فلسفة المواطنة في عصر التنوير، القاهرة، طدار الثقافة العربية، 2012م.
      - الخشت، أخلاق وسلوكيات التقدم، ط القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2004م.
  - الخشت، الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس، مجلة كلية الأداب، جامعة القاهرة، عدد 4.
- الخشت، الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، ط دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.
  - الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، القاهرة، دار قباء، الأولى، 1998م.
  - الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ط القاهرة، دار قباء / 1997م.
    - الخشت، الشائعات، ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1985م.
    - الخشت، العقائد الكبرى، طدمشق، دار الكتاب العربي، 2010م.
    - الخشت، العقلانية والتعصب، طالقاهرة، دار نهضة مصر، 2007م.
  - الخشت، الفيدية البر اهمانية الهندوسيبة، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1996م.
  - الخشت، المجتمع المدنى، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط الأولى، 2004م.
    - الخشت، المشترك بين الأديان والفلسفة، ط القاهرة، دار غريب، 2011م.
- الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م.
  - الخشت، حركة الحشاشين، ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1988م.
  - الخشت، للوحى معان أخرى، القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2013م.
    - الخشت، مدخل إلى فلسفة الأخلاق، ط القاهرة، دار قباء، 2001م.
  - الخشت، مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه، القاهرة، مكتبة القرآن، 1987م.
    - الخشت، مقارنة الأديان، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990.
      - الخشت، مناهج البحث، طدار الأمير، بيروت، 2010.
  - جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، القاهرة، ط مطبعة الموسوعات، الثالثة، 1320هـ
  - حسن حنفي، قضايا معاصرة: في الفكر الغربي المعاصر الجزء الثاني، بيروت، دار التنوير، ط1، 1982.



- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية، 1991. 2001م.

## ثانياً: المواقع الألكترونية

- التبر عات وحدها لا تكفى، أين رأس المال الاجتماعي؟ بوابة الوطن 2014/8/3م
  - الخشت، القرآن وغريزة القطيع، بوابة الوطن، 2013/7/20م.
  - الخشت، الإسلام الحر، العودة إلى المنابع، بوابة الوطن، 2013/10/26م.
  - الخشت، الإسلام الحر وحرمة الحياة الخاصة، بوابة الوطن، 2013/11/9م.
    - الخشت، الإسلام الحر ودستور بلا أقنعة، بوابة الوطن، 2013/11/16م.
- الخشت، الإسلام الحر ومعضلة الفوضى في مصر، بوابة الوطن، 2013/11/2
  - الخشت، الديمقر اطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
  - الخشت، الرأسمالية الوطنية والمصالح المستنيرة، بوابة الوطن 2014/7/6
    - الخشت، الرؤية الأحادية للإسلام، بوابة الوطن 2013/10/12م.
      - الخشت، العقل المغلق، بوابة الوطن، 2013/8/3م
- الخشت، الفقر والرأسمالية المتوحشة، هذا هو الحل، بوابة الوطن، 2014/6/29م
  - الخشت، بروفايل العقل المغلق، بوابة الوطن، 2013/8/3م
  - الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتوراً جديداً 2 / 2 بوابة الوطن، 2013/9/7م
    - الخشت، لا للمساواة نعم للعدالة، بوابة الوطن، 2013/10/5م
- د. الخشت، الإسلام والسينما وحرية الإبداع (3/3) الوطن، بوابة الوطن، 2014/5/18م.

http://www.elwatannews.com/news/details/228097

http://www.elwatannews.com/news/details/238321

http://www.elwatannews.com/news/details/238321

http://www.elwatannews.com/news/details/251256

http://www.elwatannews.com/news/details/307638

http://www.elwatannews.com/news/details/335602

http://www.elwatannews.com/news/details/339673

http://www.elwatannews.com/news/details/346095

http://www.elwatannews.com/news/details/349668

http://www.elwatannews.com/news/details/353192

http://www.elwatannews.com/news/details/356744

http://www.elwatannews.com/news/details/484641

http://www.elwatannews.com/news/details/511974

http://www.elwatannews.com/news/details/515790

http://www.elwatannews.com/news/details/531694



### ثالثاً: مقالات غير منشورة

- الخشت، الفلسفة الإسلامية المعاصرة بين الإجابة على الواقع والتفكير خارج التاريخ.
  - الخشت، مقال التفكيكية.
  - الخشت، مقال العدمية.
  - الخشت، مقال الوضعية: العجز عن الوصول إلى الواقع.

MominounWithoutBorders

s f

Mominoun (

@ Mominoun\_sm

مؤمنه نوب نوب المحدود Mominoun Without Zorders www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب: 10569

الماتف : 44 99 77 737 212 +212

- الفاكس : 21 88 77 73 537

info@mominoun.com

www.mominoun.com